(٩٨) سورة البينة مدنية وآياتها ثمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ
قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة ، وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدى فى كتاب البسيط : هذه الآية من أصعب ما فى القرآن نظما وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول : وجه الإشكال أن تقدير الآية (لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة) التى هى الرسول ، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذى كانوا عليه ، فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين ، عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التى هى الرسول ، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضى أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول ، ثم قال بعد ذلك (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وهذا يقتضى أن كفرهم قد ازداد عند مجىء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة فى الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن (والجواب) عنه من وجوه (أولها) وأحسنها الوجه الذى لخصه صاحب الكشاف . وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم : لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبى الموعود الذى هو مكتوب فى التوراة والإنجيل . وهو محمد عليه السلام ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ، ثم قال : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) يعنى

أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ، ونظيره فى الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست أمتنع مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقنى الله الغنى ، فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقاً فيقول واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك فى الفسق إلا بعد اليسار بذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً ، وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد ، وهو أن قوله (لم يكن الذين كفروا منفكين) عن كفرهم (حتى تأتيهم البينة) مذكورة حكاية عنهم ، وقوله (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب) هو إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذى وقع كان على خلاف ما ادعوا (وثانيها) أن تقدير الآية ، لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة . وعلى هذا التقدير يزول الإشكال هكذا ذكره القاضى إلا أن تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة فى شيء (وثالثها) أنا لا نحمل قوله (منفكين) على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل والمعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى تأتيهم البينة قال ابن عرفة أى حتى أتتهم . فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضى ، وهو كقوله تعالى (ماتتلوا الشياطين) أى ما تلت ، والمعنى أنهم ما كانوا منفكين عن ذكر مناقبه ، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه ، وقال كل واحد فيه قولا آخر ردياً ونظيره قوله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) والقول المختار فى هذه الآية هو الأول ، وفى الآية وجه رابع وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ما كانوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول ، وكلمة حتى تقتضى أن يكون الحال بعد ذلك ، بخلاف ما كان قبل ذلك ، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع ما بقوا على الكفر بل تفرقوا فمنهم من صار مؤمناً ، ومنهم من صار كافراً ، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد مجيء الرسول كما كان قبل مجيئه ، كفى ذلك فى العمل بمدلول لفظ حتى ، وفيها (وجه خامس) وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفكين عن التردد فى كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته ، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول ، بل بقوا شاكين متحيرين فى ذلك الدين وفى سائر الأديان ، ونظيره قوله (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) والمعنى أن الدين الذى كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم فاليهودى كان جازماً فى يهوديته وكذا النصرانى وعابد الوثن ، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام : اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد فى دينه ومذهبه ومقالته ، وقوله تعالى (منفكين) مشعر بهذا لأن انفكاك الشيء عن الشيء هو انفصاله عنه ، فمعناه أن قلوبهم ما خلت عن تلك العقائد وما انفصلت عن الجزم بصحتها ، ثم إن بعد المعبث لم يبق الأمر على تلك الحالة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكفار كانوا جنسين (أحدهما) أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى وكانوا كفاراً بإحداثهم فى دينهم ما كفروا به كقولهم (عزير ابن الله) و (المسيح ابن الله) وتحريفهم

كتاب الله ودينه (والثانى) المشركون الذين كانوا لا ينسبون إلى كتاب ، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله (الذين كفروا) على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالتفصل ، وهو قوله (من أهل الكتاب والمشركين) وههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين فهذا يقتضى أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، وهذا حق ، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، ومعلوم أن هذا ليس بحق (والجواب) من وجوه (أحدها) كلمة من ههنا ليست للتبعيض بل للتبيين كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) (وثانيها) أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، بعضهم من أهل الكتاب وبعضهم من المشركين ، فإذخال كلمة من لهذا السبب (وثالثها) أن يكون قوله (والمشركين) أيضاً وصفاً لأهل الكتاب ، وذلك لأن النصارى مثلثة واليهود عامتهم مشبهة ، وهذا كله شرك ، وقد يقول القائل جاءنى العقلاء والظرفاء يريد بذلك قوماً بأعيانهم يصفهم بالأمرين . وقال تعالى (الراكعون الساجدون الآمرون بالمعرف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود) وهذا وصف لطائفة واحدة ، وفى القرآن من هذا الباب كثير ، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى ، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفاً لموصوف واحد .

﴿ السؤال الثانى ﴾ المجوس هل يدخلون فى أهل الكتاب ؟ (قلنا) ذكر بعض العلماء أنهم داخلون فى أهل الكتاب لقوله عليه السلام « سنوليهم سنة أهل الكتاب » وأنكره الآخرون قال لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان فى بلاد العرب ، وهم اليهود والنصارى ، قال تعالى حكاية عنهم (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) والطائفتا هم اليهود والنصارى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ماالفائدة فى تقديم أهل الكتاب فى الكفر على المشركين ؟ حيث قال (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ؟ (الجواب) أن الواو لا تفيد الترتيب ، ومع هذا ففيه فوائد (أحدها) أن السورة مدنية فكأن أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر (وثانيها) أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم ، فكان إصرارهم على الكفر أقبح (وثالثها) أنهم لكونهم علماء يقتدى غيرهم بهم فكان كفرهم أصلا لكفر غيرهم ، فلهذا قدموا فى الذكر (ورابعها) أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا فى الذكر

﴿ السؤال الرابع ﴾ لم قال من أهل الكتاب ، ولم يقل من اليهود والنصارى ؟ (الجواب) لأن قوله (من أهل الكتاب) يدل على كونهم علماء ، وذلك يقتضى إما مزيد تعظيم . فلا جرم ذكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى ، أو لأن كونه عالماً يقتضى مزيد قبح فى كفره ، فذكروا بهذا الوصف تنبيهاً على تلك الزيادة من العقاب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع (أحدها) أنه تعالى فسر قوله (الذين كفروا) بأهل الكتاب و بالمشركين ، فهذا يقتضى كون الكل واحداً فى الكفر ، فمن ذلك قال العلماء : الكفر كله ملة واحدة ، فالمشرك يرث اليهودى و بالعكس (والثانى) أن العطف أوجب المغايرة ، فلذلك نقول الذمى ليس بمشرك ، وقال عليه السلام « غيرنا كحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم » فأثبت التفرقة بين الكتابى والمشرك (الثالث) نبه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم إذ قد حدث فى أهل القرآن مثل ما حدث فى الأمم الماضية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال القفال الانفكاك هو انفراج الشىء عن الشىء وأصله من الفك وهو الفتح والزوال ، ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه ففتحته ، ومنه فكاك الرهن وهو زوال الإنغلاق الذى كان عليه ألا ترى أن ضد قوله انفك الرهن ، ومنه فكاك الأسير وفكه ، فثبت أن انفكاك الشىء عن الشىء هو أن يزيله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثاً قوياً لا يزيلونه إلا عند مجىء البينة ، أما البينة فهى الحجة الظاهرة التى بها يتميز الحق من الباطل فهى من البيان أو البينونة لأنها تبين الحق من الباطل ، وفى المراد من البينة فى هذه الآية أقوال :

﴿ الاول ﴾ أنها هى الرسول ، ثم ذكروا فى أنه لم سمى الرسول بالبينة وجوهاً (الأول) أن ذاته كانت بينة على نبوته ، وذلك لأنه عليه السلام كان فى نهاية الجد فى تقرير النبوة والرسالة ، ومن كان كذاباً متصنعاً فإنه لا يتأتى منه ذلك الجد المتناهى ، فلم يبق إلا أن يكون صادقاً أو معتوهاً (والثانى) معلوم البطلان لأنه كان فى غاية كمال العقل ، فلم يبق إلا أنه كان صادقاً (الثانى) أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز ، والجاحظ قرر هذا المعنى ، والغزالى رحمه الله نصره فى كتاب المنقذ ، فاذاً لهذين الوجهين سمى هو فى نفسه بأنه بينة (الثالث) أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت فى غاية الظهور وكانت أيضاً فى غاية الكثرة فلاجتماع هذين الأمرين جعل كأنه عليه السلام فى نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه الله تعالى (سراجا منيراً) . واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية (رسول من الله) فهو رفع على البدل من البينة ، وقرأ عبد الله (رسولا) حال من البينة قالوا والألف واللام فى قوله (البينة) للتعريف أى هو الذى سبق ذكره فى التوراة والانجيل على لسان موسى وعيسى ، أو يقال إنها للتفخيم أى هو (البينة) التى لا مزيد عليها أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتفخيم وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا فى حق الرسول عليه السلام فبدأ بالتعريف وهو لفظ البينة ثم ثنى بالتنكير فقال (رسول من الله) أى هو رسول ، وأى رسول ، ونظيره ماذكره الله تعالى فى الثناء على نفسه فقال (ذو العرش المجيد) ثم قال (فعال) فنكر بعد التعريف .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من (البينة) مطلق الرسل وهو قول أبى مسلم قال المراد من قوله

(حتى تأتيهم البينة) أى حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلوا عليهم صحفاً مطهرة وهو كقوله (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) وكقوله (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) .

﴿ القول الثالث ﴾ وهو قتادة وابن زيد (البينة) هى القرآن ونظيره قوله (أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى) ثم قوله بعد ذلك (رسول من الله) لابد فيه من مضاف محذوف والتقدير : وتلك البينة وحى (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) .

أما قوله تعالى (يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة) فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهى ظرف للمكتوب ، وفى (المطهرة) وجوه : (أحدها) (مطهرة) عن الباطل وهى كقوله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وقوله (مرفوعة مطهرة) ، (وثانيها) مطهرة عن الذكر القبيح فان القرآن يذكر بأحسن الذكر ويثنى عليه أحسن الثناء . (وثالثها) أن يقال مطهرة أى ينبغى أن لا يمسها إلا المطهرون ، كقوله تعالى (فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون) .

واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتاً للصحف فى الظاهر فهى نعت لما فى الصحف وهو القرآن وقوله (كتب) فيه قولان (أحدهما) المراد من الكتب الآيات المكتوبة فى الصحف (والثانى) قال صاحب النظم الكتب قد يكون بمعنى الحكم (كتب الله لأغلبن) ومنه حديث العسيف « لأقضين بينكما بكتاب الله » أى بحكم الله فيحتمل أن يكون المراد من قوله (كتب قيمة) أى أحكام قيمة أما القيمة ففيها قولان (الأول) قال الزجاج مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل من قام يقوم كالسيد والميت ، وهو كقولهم قام الدليل على كذا إذا ظهر واستقام (الثانى) أن تكون القيمة بمعنى القائمة أى هى قائمة مستقلة بالحجة والدلالة ، من قولهم قام فلان بالأمر يقوم به إذا أجراه على وجهه ، ومنه يقال للقائم بأمر القوم القيم ، فان قيل كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أمياً ؟ قلنا إذا تلا مثلا المسطور فى تلك الصحف كان تالياً ما فيها وقد جاء فى كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب ، وإن كان لا يكتب ، ولعل هذا كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى هذه الآية سؤال ، وهو أنه تعالى ذكر فى أول السورة ، أهل الكتاب والمشركين ، وههنا ذكر أهل الكتاب فقط ، فما السبب فيه ؟ (وجوابه) من وجوه (أحدها) أن المشركين لم يقروا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل ، بخلاف أهل الكتاب الذين يقرون على كفرهم ببذل الجزية (وثانيها) أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب أنهم وجدوها فى كتبهم ، فاذا وصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل فى هذا الوصف .

وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائى هـذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا إن النـاس تفرقوا فى الشقاوة والسعادة فى أصلاب الآباء قبل أن تأتيهم البينة (والجواب) أن هـذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل فى الأزل ، أما ظهوره من المكلف فانمـا وقع بعد الحالة المخصوصة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قالوا هـذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلهم لا أنه مقـدر عليهم لأنه قال (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) ، ثم قال (أوتو الكتاب) أى أن الله وملائكته آتاهم ذلك فالخير والتوفيق مضاف إلى الله ، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المقصود من هذه الآية تسلية الرسول ﷺ أى لايغمنك تفرقهم فليس ذلك لقصور فى الحجة بل لعنادهم ، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا فى السبت وعبادة العجل (إلا من بعد ما جاءتهم البينة) فهى عادة قديمة لهم .

قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلوة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى قوله (وما أمروا) وجهان : (أحدهما) أن يكون المراد (وما أمروا) فى التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفى ، فيكون المراد أنهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لمـا أتبعه بقوله (وذلك دين القيمة) علمنـا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعا فى حقهم فهو مشروع فى حقنا (وثانيها) أن يكون المراد : وما أمر أهل الكتاب على لسان محمد ﷺ إلا بهـذه الأشياء ، وهذا أولى ، لثلاثة أوجه : (أحدها) أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى (وثانيها) وهو أن ذكر محمد عليه السلام قد مر ههنا وهو قوله (حتى تأتيهم البينة) وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم (وثالثها) أنه تعالى ختم الآية بقوله (وذلك دين القيمة) فحكم بكون ماهو متعلق هذه الآية دينا قيما فوجب أن يكون شرعا فى حقنا سواء قلنا بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بيانا لشرع محمد عليه الصلاة والسلام وهـذا قول مقاتل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى قوله (إلا ليعبدوا الله) دقيقة وهى أن هذه اللام لام الغرض ، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلا لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض ، فلو فعل الله فعلا لكان ناقصاً لذاته مستكملا بالغـير وهو محال ، لأن ذلك الغرض إن كان قديمـا

لزم من قدمه قدم الفعل ، وإن كان محدثاً افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة فهو عاجز ، وإن كان قادراً عليه كان توسيط تلك الواسطة عبثاً ، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل . ثم قال الفراء العرب تجعل اللام فى موضع أن فى الأمر والإرادة كثيراً ، من ذلك قوله تعالى (يريد الله ليبين لكم ، يريدون ليطفئوا) وقال فى الأمر (وأمرنا لنسلم) وهى فى قراءة عبد الله (وما أمروا إلا أن يعبدوا الله) فثبت أن المراد : وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين . والإخلاص عبارة عن النية الخالصة ، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة ، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً ، ثم قالت الشافعية الوضوء مأمور به فى قوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون منوياً ، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منوياً ، وأما المعتزلة فانهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض ، لاجرم أجروا الآية على ظاهرها فقالوا معنى الآية : وما أمروا بشيء إلا لأجل أن يعبدوا الله ، والإستدلال على هذا القول أيضاً قوى ، لأن التقدير وما أمروا بشيء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فى ذلك الشيء ، وهذا أيضاً يقتضى اعتبار النية فى جميع المأمورات . فان قيل النظر فى معرفة الله مأمور به و يستحيل اعتبار النية فيه . لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة ، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه . فلنا هب أنه خص عموم الآية فى هذه الصورة بحكم الدليل العقلى الذى ذكرتم فيبقى فى الباقى حجة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (أمروا) مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو (كتب عليكم الصيام) (كتب عليكم القصاص) قالوا فيه وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتى لعبادتك كإرادة الوالدة لحجامتك ، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) ، (كتب فى قلوبهم الإيمان) وذكر فى الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملا يقول له أولا : ينبغى أن تفعل هذا ولا يأمره صريحاً ، لأنه ربما رد عليه فتعظم جنايته ، فههنا أيضا لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد (وثانيها) أنا على القول بالحسن والقبح العقليين ، نقول كأنه تعالى يقول : لست أنا الآمر للعبادة فقط ، بل عقلك أيضاً يأمرك لأن النهاية فى التعظيم لمن أوصل إليك [أن] نهاية الإنعام واجبة فى العقول .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اللام فى قوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا : العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة ، أو إلى البعد عن عقاب النار ، بل لأجل أنك عبد وهو رب ، فلو لم يحصل فى الدين ثواب ولا عقاب البتة ، ثم أمرك بالعبادة . وجبت لمحض العبودية ، وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود فى الحقيقية هو الثواب والعقاب ، والحق واسطة ، ونعم ما قيل : من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني .

ومن آثر العرفان لا للعرفان ، بل المعروف ، فقد خاض لجة الوصول .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ العبادة هي التذلل ، ومنه طريق معبد ، أي مذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ ، لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة الله ، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم ، واعلم أن العبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية ، والفعلية ، فإن كان مثل لم يجز أن يصرف إليه النهاية في التعظيم ، ثم نقول : لابد في كون الفعل عبادة من شيئين (أحدهما) غاية التعظيم ، ولذلك قلنا : إن صلاة الصبي ، ليست بعبادة ، لأنه لا يعرف عظمة الله ، فلا يكون فعله في غاية التعظيم (والثاني) أن يكون مأموراً به ، ففعل اليهودي ليس بعبادة ، وإن تضمن نهاية التعظيم ، لأنه غير مأمور به ، والنكتة الوعظية فيه ، أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودي ليس بعبادة لفقد الأمر ، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم ؟ .

﴿ المسألة السادسة ﴾ الإخلاص هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل ، والنكت الوعظية فيه من وجوه (أحدها) كأنه تعالى يقول عبدي لا تسع في إكثار الطاعة بل في إخلاصها لأني ما بذلت كل مقدوري لك حتى أطلب منك كل مقدورك ، بل بذلت لك البعض ، فأطلب منك البعض نصفاً من العشرين ، وشاة من الأربعين ، لكن القدر الذي فعلته لم أرد بفعله سواك ، فلا ترد بطاعتك سواي ، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلا من أن تستثنيه لغيرك ، فمن ذلك المباح الذي يوجد منك في الصلاة كالحكة والتنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الإخلاص ، وأما الإلتفات المكروه فذا حظ الشيطان (وثانيها) كأنه تعالى قال : يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه وأنا حكيم لا أفعل ذلك البتة ، فإذاً لا تريد إلا ما أريد ولا أريد إلا ما تريد ، ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن ، فكأنه تعالى بفضله قال الملك لا يخدم الملك لكن [لكي] نصطلح أجعل جميع ما أفعله لأجلك (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) فاجعل أنت أيضاً جميع ما تفعله لأجلي (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

واعلم أن قوله (مخلصين) نصب على الحال فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه ، والواجب لوجوبه ، فيأتي بالفعل لوجهه مخلصاً لربه ، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، بل قالوا لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً وإن كان لابد من ذلك ، وفي التوراة : ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غير وجهي فكثيره قليل . وقالوا من الإخلاص أن لا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير ، مثل الواجب من الأضحية شاة ، فإذا ذبحت اثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يجز لأنه شرك ، وإن زدت في الخشوع ، لأن الناس يرونه لم يجز ، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة

أخرى ، فكيف ولو خلطت بها محظوراً مثل أن تتقدم على إمامك ، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإماء لأنه لم يخلص ، فاذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص ، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص ؟ وقد اختلفت ألفاظ السلف فى معنى قوله (مخلصين) قال بعضهم : مقرين له بالعبادة ، وقال آخرون : قاصدين بقلوبهم رضا الله فى العبادة ، وقال الزجاج أى يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره ، ويدل على هذا قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً) .

أما قوله تعالى (حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ففيه أقوال :

﴿ الأول ﴾ قال مجاهد متبعين دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وهذا التفسير فيه لطيفة كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستول على الطباع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية ولم يستجز التعويل على التقليد أيضاً بالكلية ، فلا جرم ذكر قوماً أجمع الخلق بالكلية على تزكيتهم ، وهو إبراهيم ومن معه ، فقال(قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه)فكأنه تعالى قال : إن كنت تقلد أحداً فى دينك ، فكن مقلداً إبراهيم ، حيث تبرأ من الأصنام وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلمها إلى النيران ، ومن ماله حين بذله للضيفان ، ومن ولده حين بذله للقربان ، بل روى أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه ، ولم يرشخصاً فاستعاده ، فقال أما بغير أجر فلا ، فبذل كل ماملكه فظهر له جبريل عليه السلام ، وقال حق لك حيث سماك خليلا فخذ مالك ، فإن القائل ، كنت أنا ، بل انقطع إلى الله حتى عن جبريل حين قال أما إليك فلا ، فالحق سبحانه كأنه يقول : إن كنت عابداً فاعبد كعبادته ، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين ، أما تترك الحرام وموافقة الشياطين ، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم ، فاجتهد فى متابعة ولده الصبى ، كيف انقاد لحكم ربه مع صغره ، فمد عنقه لحكم الرؤيا ، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل ، وهى أم الذبيح ، كيف تجرعت تلك الغصة ، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الاثنتين يقومان مقام الرجل الواحد فى الشهادة والإرث ، والرقيقة نصف الحرة بدليل إن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل ، ثم أنظر كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة فى ولادها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة فى جبال مكة بلا ماء ولا زاد وانصرف ، لا يكلمها ولا يعطف عليها ، قالت آلله أمرك بهذا ؟ فأومأ برأسه نعم ، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق .

﴿ والقول الثانى ﴾ المراد من قوله (حنفاء) اى مستقيمين والحنف هو الاستقامة ، وإنما سمى مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل ، كقولنا للأعمى بصير وللمهلكة مفازة ، ونظيره قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) (اهدنا الصراط المستقيم)

﴿ والقول الثالث ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما حجاجاً ، وذلك لأنه ذكر العباد أولا ثم قال (حنفاء) وإنما قدم الحج على الصلاة لأن فى الحج صلاة وإنفاق مال (الرابع) قال أبو قلابة

الحنيف الذى آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحداً منهم ، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفا (الخامس) حنفاء أى جامعين لـكل الدين إذ الحنيفية كل الدين ، قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحة » (السادس) قال قتادة هى الختان وتحريم نـكاح المحارم أى مختونين محرمين لنكاح الأم والمحارم ، فقوله (حنفاء) إشارة إلى النفى ، ثم أردفه بالإثبات ، وهو قوله (ويقيموا الصلاة) (السابع) قال أبو مسلم أصله من الحنف فى الرجل ، وهو إدبار إبهامها عن أخواتها حتى يقبل على إبهـام الأخرى ، فيكون الحنيف هو الذى يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام (الثامن) قال الربيع بن أنيس الحنيف الذى يستقبل القبلة بصلاته ، وإنمـا قال ذلك لأنه عند التـكبير يقول : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وأما الـكلام فى إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة فقد مر مراراً كثيرة ، ثم قال (وذلك دين القيمة) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المبرد و الزجاج : ذلك دين الملة القيمة ، فالقيمة نعت لموصوف محذوف ، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة ، وقد ذكرنا هذين القولين فى قوله (كتب قيمة) وقال الفراء : هذا من إضافة النعت إلى المنعوت ، كقوله (إن هذا لهو حق اليقين) والهـاء للمبالغة كما فى قوله (كتب قيمة) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ فى هذه الآية لطائف (إحداها) أن الكمال فى كل شىء إنمـا يحصل إذا حصل الأصل والفرع معا ، فقوم أطنبوا فى الأعمال من غير إحكام الأصول ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، فانهم ربمـا أتعبوا أنفسهم فى الطاعات ، ولـكنهم ماحصلوا الدين الحق ، وقوم حصلوا الأصول وأهملوا الفروع ، وهم المرجئة الذين قالوا لا يضر الذنب مع الإيمـان ، والله تعالى خطأ الفريقين فى هذه الآية ، وبين أنه لابد من العلم والإخلاص فى قوله (مخلصين) ومن العمـل فى قوله (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ثم قال وذلك المجموع كله هو (دين القيمة) أى البينة المستقيمة المعتدلة ، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد كذا هذا المجموع دين واحد فقلب دينك الاعتقاد وجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك ، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه فـكأنه سبحانه يقول القائم بتحصيل مصالحك عاجلا وآجلا هو هذا المجموع ، ونظيره قوله تعالى (ديناً قيما) وقوله فى القرآن (قيما لينذر بأساً شديداً) لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق ، ويؤيده قوله عليه السلام « من كان فى عمل الله كان الله فى عمله » وأوحى الله تعـالى إلى داود عليه السلام « يادنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمنى فاخدميه » ، (وثانيها) أن المحسنين فى أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبيده والملائكة ، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح ، لخالقهم فالإحسان من الله لا من الملائكة ، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله ، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباهياً بهم : ملائـكتى هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا ، بل فى بعض الأفعال أمثالى أحسنوا

وتصدقوا ، ثم إنى أكرمكم بإملائكتى بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأنتم تعظمونى بمجرد مافعلت من الإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين ؛ أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتو بالإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين ، فتتعجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة ، فلهذا قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم) أفلا يكون هذا الدين قيما (وثالثها) أن الدين كالنفس لحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العالمة بلا قدرة كالزمن العاجز ، والقادرة بلا علم مجنونة فاذا اجتمع العلم والقدرة كانت النفس كاملة فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة ، فاذا اجتمعتا سمى الدين قيمة (ورابعها) وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شيء ، وهو القول والاعتقاد فقال (مخلصين) ثم لما أجابوه زاده ، فسألهم الصلاة التى بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت ، ثم لما أجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال « لا زكاة فى مال يحول عليه الحول » ثم لما ذكر الكل قال (وذلك دين القيمة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج من قال الإيمان عبادة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية ، فقال مجموع القول والفعل والعمل هو الدين والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان فاذاً مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان ، لأنه تعالى ذكر فى هذه الآية مجموع الثلاثة . ثم قال (وذلك دين القيمة) أى وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) وإنما قلنا إن الإسلام هو الايمان لوجهين (الأول) أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولا عند الله تعالى لقوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) لكن الإيمان بالاجماع مقبول عند الله ، فهو إذاً عين الإسلام (والثانى) قوله تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) فاستثناء المسلم من المؤمن ، يدل على أن الإسلام يصدق عليه ، وإذا ثبتت هذه المقدمات ، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة أعنى القول والفعل والعمل هو الإيمان ، وحينئذ يبطل قول من قال ، الايمان اسم لمجرد المعرفة ، أو لمجرد الإقرار أو لهما معاً (والجواب) لم لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله (وذلك) إلى الإخلاص فقط ؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لانحتاج إلى الإضمار أولى ، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار ، فتقولون : المراد وذلك المذكور ، ولا شك أن عدم الإضمار أولى ، سلمنا أن قوله (وذلك) اشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم ، فلم قلتم إن ذلك المجموع هو الدين ، وذلك لأن الدين غير ، والدين القيم ، فالدين القيم هو الدين الكامل المستقبل بنفسه ، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلا ، وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلة أيضاً ، وهى الصلاة والزكاة ، وإذا لم يوجد هذا المجموع ، لم يكن الدين القيم حاصلا ، لكن لم قلتم إن أصل الدين لا يكون حاصلا والنزاع ماوقع إلا فيه ؟ والله أعلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولا فى قوله (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين) ثم ذكر ثانيا حال المؤمنين فى قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) أعاد فى آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين ، فبدأ أيضاً بحال الكفار ، فقال (إن الذين كفروا) واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين (أحدهما) الخلود فى نار جهنم (والثانى) أنهم شر الخلق ، وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قدم أهل الكتاب على المشركين فى الذكر؟ (الجواب) من وجوه (أحدها) أنه عليه الصلاة والسلام ،كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه ، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال « اللهم املأ بطونهم وقبورهم ناراً » فكأنه عليه السلام قال كانت الضربة ثم على وجه الصورة ، وفى يوم الخندق على وجه السيرة التى هى الصلاة ، ثم إنه سبحانه قضاه ذلك فقال كما قدمت حق على حقك فأنا أيضا أقدم حقك على حق نفسى ، فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن فى شعرة من شعراتك يكفر . إذا عرفت ذلك فنقول : أهل الكتاب ما كانوا يطعنون فى الله بل فى الرسول ، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون فى الله ، فلما أراد الله تعالى فى هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولا فى النكاية بذكر من طعن فى محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب ، ثم ثانياً بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون (وثانيها) أن جناية أهل الكتاب فى حق الرسول عليه السلام كانت أعظم ، لأن المشركين رأوه صغيراً ونشأ فيما بينهم ، ثم سفه أحلامهم وأبطل أديانهم ، وهذا أمر شاق ، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد .

﴿ السؤال الثانى ﴾ لم ذكر (كفروا) بلفظ الفعل (والمشركين) باسم الفاعل ؟ (والجواب) تنبيها على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين بالتورة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون

القيامة ، أما أهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كفر أهل الكتاب أخف من كفر المشركين ، وإذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين فى العذاب ؟ (والجواب) يقال بئر جهنام إذا كان بعيد القعر ، فكأنه تعالى يقول تكبروا طلباً للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين ، ثم إن الفريقين وإن اشتركا فى ذلك لكنه لا ينافى اشتراكهم فى هذا القدر تفاوتهم فى مراتب العذاب ، واعلم أن الوجه فى حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك ، وهذا القسم الثانى هو أقبح القسمين والإحسان أيضاً على قسمين إحسان إلى من أحسن إليك ، وإحسان إلى من أساء إليك ، وهذا أحسن القسمين ، فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان وإساءتهم وكفرهم أقبح أنواع الإساءة ، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية ، فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع ، وبالزنا رجم ، وبالقتل قصاص ، بل شتم المماثل يوجب التعزير ، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل ، فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنايات ، لا جرم استحقوا أعظم العقوبات ، وهو نار جهنم ، فإنها نار فى موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه البتة ، ثم كأنه قال قائل : هب أنه ليس هناك رجاء الفرار ، فهل هناك رجاء الإخراج ؟ فقال : لا بل يبقون خالدين فيها ، ثم كأنه قيل فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم ؟ فقال لا بل يذمونهم ، ويلعنونهم لأنهم شر البرية .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما السبب فى أنه لم يقل ههنا خالدين فيها أبداً ، وقال فى صفة أهل الثواب (خالدين فيها أبداً) ؟ (والجواب) من وجوه (أحدها) التنبيه على أن رحمته أزيد من غضبه (وثانيها) أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل ، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل (وثالثها) روى حكاية عن الله أنه قال : ياداود حببنى إلى خلقى ، قال وكيف أفعل ذلك ؟ قال اذكرلهم سعة رحمتى ، فكان هذا من هذا الباب .

﴿ السؤال الخامس ﴾ كيف القراءة فى لفظ البرية ؟ (الجواب) قرأ نافع البريئة بالهمز ، وقرأ الباقون بغير همز وهو من برأ الله الخلق ، والقياس فيها الهمز إلا أنه ترك همزه ، كالنبى والذرية والخابية ، والهمزة فيه كالرد إلى الأصل المتروك فى الاستعمال ، كما أن من همز النبى كان كذلك وترك الهمز فيه أجود ، وإن كان الهمز هو الأصل ، لأن ذلك صار كالشىء المرفوض المتروك . وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال إنه من البرا الذى هو التراب .

﴿ السؤال السادس ﴾ ما الفائدة فى قوله هم شر البرية ؟ (الجواب) أنه يفيد النفى والإثبات أى هم دون غيرهم . واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها ، شر من السراق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله ، صفة محمد ﷺ ، وشر من قطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق ، وشر من الجهال الأجلاف ، لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .

﴿ السؤال السابع ﴾ هذه الآية هل هي مجراة على عمومها ؟ (الجواب) لا بل هي مخصوصة بصورتين (إحداهما) أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد (والثانية) قال بعضهم : لا يجوز أن يدخل فى الآية من مضى من الكفار ، لأن فرعون كان شراً منهم ، فأما الآية الثانية وهى الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر ، لأنهم أفضل الأمم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ فيه مسائل

﴿ المسألة الأولى ﴾ الوجه فى حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه (أحدها) أن الوعيد كالدواء ، والوعد كالغذاء ، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقياً انتفع بالغذاء ، فإن البدن غير النقى كلما غذوته زدته شراً ، هكذا قاله بقراط فى كتاب الفصول (وثانيها) أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحاً للمدارس والخف ، أما قبله فلا ، ولذلك فإن الانسان متى وقع فى محنة أو شدة رجع إلى الله ، فإذا نال الدنيا أعرض ، على ما قال (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) (وثالثها) أن فيه بشارة ، كأنه تعالى يقول : لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذى هو بشارة منى فى أنى أختم أمرك بالخير ، ألست كنت نجسا فى مكان نجس ، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهراً ، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهراً !

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج من قال إن الطاعات ليست داخلة فى مسمى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة فى هذه الآية على الإيمان ، والمعطوف غير المعطوف عليه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (إن الذين آمنوا) ولم يقل إن المؤمنين إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده ، وبذلوا الأموال والمهج لأجله ، ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى كما قال (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ولفظة (آمنوا) أى فعلوا الإيمان مرة .

واعلم أن الذين يعتبرون الموافاة يحتجون بهذه الآية ، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب ، والذى يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب ، فعلمنا أنه ما صدر الايمان عنه فى الحقيقة قبل ذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (وعملوا الصالحات) من مقابلة الجمع بالجمع ، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات ، بل لكل مكلف حظ فحظ الغنى الإعطاء ، وحظ الفقير الأخذ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ احتج بعضهم بهذه الآية فى تفضيل البشر على الملك ، قالوا روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال « أتعجبون من منزلة الملائكة من الله تعالى ! والذى نفسى بيده لمنزلة العبد المؤمن عندالله يوم القيامة أعظم من ذلك ، واقرؤا إن شئتم : أن الذين آمنوا وعملوا

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ .

واعلم أن هـذا الاستدلال ضعيف لوجوه : (أحدها) ما روى عن يزيد النحوى أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه البتة (وثانيها) أن قوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك (وثالثها) أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل ، قالوا وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة ، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون ، ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هى مسكن الشياطين ، وأيضاً فمصالحنا منتظمة بهم ورزقنا فى يد البعض وروحنا فى يد البعض ، ثم هم العلماء ونحن المتعلمون ، ثم انظر إلى عظيم همتهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب ، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الالهية حين قال (ومن يقل منهم إنى إله من دونه) أى لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية ، وأنت أبداً عبد البطن والفرج ، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبى لأنه تعالى مدح النبى باحياء ثلثى الليل وقال فيهم (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ومرة (لا يسأمون) وتمام القول فى هذه المسألة قد تقدم فى سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر مافيها من اللطائف فى مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقاً من المحن والآفات ، فصاغه من أنجس شىء فى أضيق مكان إلى أن خرج باكياً لا للفراق ولكن مشتكياً من وحشة الحبس ليرحم ، كالذى يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم ، ثم لم يرحم بل شدته القابلة ولم يكن مشدوداً فى الرحم ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوا فى المهد وشدوه بالقماط ، ثم لم يمض قليل حتى أسلموه إلى أستاذ يحبسه فى المكتب ويضربه على التعليم وهكذا إلى أن بلغ الحلم ، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف ، ثم إن المكلف يصير كالمتحير ، يقول من الذى يفعل فى هذه الأفعال مع أنه ما صدرت عنى جناية ! فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل ، فوجده عالماً لا يشبه العالمين ، وقادراً لا يشبه القادرين ، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة المحنة ، لكن حقيقته محض الكرم والرحمة ، فترك الشكاية وأقبل على الشكر ، ثم وقع فى قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة ، فجعل قلبه مسكناً لسلطان عرفانه ، فكأن الحق قال : عبدى أنزل معرفتى فى قلبك حتى

لا يخرجها منه شيء أو يسبقها هناك فيقول العبد : يارب أزلت حب الثدى فى قلبي ثم أخرجته ، وكذا حب الآب والأم ، وحب الدنيا وشهواتها وأخرجت الكل . أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبي ، ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة فى أرض القلب انفجر من هذا الينبوع أنهار وجداول ، فالجدول الذى وصل إلى العين حصل منه الاعتبار ، والذى وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسبيحاتهم ، وهكذا فى جميع الأعضاء والجوارح ، فيقول الله عبدى جعلت قلبك كالجنة لى وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة ، فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا ، فأنا أولى بالجود والكرم والرحمة لجنة بجنة ، فلهذا قال (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) بل كأن الكريم الرحيم يقول عبدى أعطانى كل ماملكه ، وأنا أعطيته بعض مافى ملكى ، وأنا أولى منه بالكرم والجود ، فلا جرم جعلت هذا البعض منه موهوباً دائماً مخلداً ، حتى يكون دوامه وخلوده جابراً لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الجزاء اسم لما يقع به الكفاية ، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن الماء ، فهذا يفيد معنيين (أحدهما) أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص (والثانى) أنه تعالى يعطيه مايقع به الكفاية ، فلا يبقى فى نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلا ، على ما قال (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (جزاؤهم) فأضاف الجزاء إليهم ، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) (والجواب) أما أهل السنة فإنهم يقولون إنه لو قال الملك الكريم : من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار ، فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لابحسب الاستحقاق الذاتى ، فقوله (جزاؤهم) يكفى فى صدقه هذا المعنى وأما المعتزلة فانهم قالوا فى قوله تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) إن كلمة من لابتداء الغاية ، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان ، إنما حصل بسبب فضلك السابق فانك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الأعذار وأعطيت الألطاف وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة . فان قيل فاذا كان لاحق لأحد عليه فى مذهبكم ، فما السبب فى التزام مثل هذا الانعام ؟ قلنا : أتسأل عن إنعامه الأمسى حال عدمنا ؟ أو عن إنعامه اليومى حال التكليف ؟ أو عن إنعامه فى غد القيامة ؟ فان سألت عن الأمسى فكأنه يقول : أنا منزه عن الإنتفاع والمائدة مملوءة من المنافع فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع ، فكما أن من له مال ولا عيال له فانه يشترى العبيد والجوارى لينتفعوا بماله ، فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه . كما روى « الخلق عيال الله » وأما اليومى فالانعام يوجب الإتمام بعد الشروع . فالرحمن أولى . وأما الغد فأنا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفى بذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ فى قوله (عند ربهم) لطائف :

﴿ أحدها ﴾ قال بعض الفقهاء : لو قال لاشىء لى على فلان ، فهذا يختص بالديون وله أن يدعى الوديعة ، ولو قال لاشىء لى عند فلان انصرف إلى الوديعة دون الدين ، ولو قال لاشىء لى قبل فلان انصرف إلى الدين والوديعة معاً . إذا عرفت هـذا فقوله (عند ربهم) يفيد أنه وديعة والوديعة عين ، ولو قال لفلان على فهو إقرار بالدين ، والعين أشرف من الدين فقوله (عند ربهم) يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد ، فان قيل الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون ، قلنا : المضمون خير إذا تصور الهلاك فيه وهذا فى حق الله تعالى محال ، فلاجرم قلنا الوديعة هناك خير من المضمون .

﴿ وثانيها ﴾ إذا وقعت الفتنة فى البلدة ، فوضعت مالك عنـد إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب ، فههنا ستقع الفتنة فى بلدة بدنك ، وحينئذ تخاف الشيطان من أن يغيروا عليها ، فضع وديعة أمانتك عندى فانى أكتب لك به كتاباً يتلى فى المحاريب إلى يوم القيامة وهو قوله (جزاؤهم عند ربهم) حتى أسلمه إليك أحوج ما تكون إليه وهو فى عرصة القيامة .

﴿ وثالثها ﴾ أنه قال (عند ربهم) وفيه بشارة عظيمة ، كأنه تعالى يقول أنا الذى ربيتك أولا حين كنت معدوماً صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة ، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء فحين كنت مطلقاً أعطيتك هذه الأشياء ، وما ضيعتك أترى أنك إذا اكتسبت شيئاً وجعلته وديعة عندى فأنا أضيعها ، كلا إن هذا مما لايكون .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله (جزاؤهم عند ربهم جنات) فيه قولان :

﴿ أحدهما ﴾ أنه قابل الجمع بالجمع(١) ، وهو يقتضى مقابلة الفرد بالفرد ، كما لو قال لامرأتيه أو عبديه : إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا فيحمل هـذا على أن يدخل كل واحد منهما داراً على حدة ، وعن أبى يوسف لم يحنث حتى يدخلا الدارين ، وعلى هذا إن ملكتما هذين العبدين ، ودليل القول الأول (جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم) فعلى القول الأول بين أن الجزاء لكل مكلف جنة واحدة ، لكن أدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روى مرفوعاً ، ويدل عليه قوله تعالى (وملكا كبيراً) ويحتمل أن يراد لكل مكلف جنات ، كما روى عن أبى يوسف وعليه يدل القرآن ، لأنه قال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال (ومن دونهما جنتان) فذكر أربعاً للواحد ، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله ، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان اثنان دون الاثنين ، فاستحق جنتين دون الجنتين ، فحصلت له أربع جنات ، لسكبه البكاء من أربعة أجفان ، ثم إنه تعالى قدم الخوف فى قوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وأخر الخوف فى هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله (ذلك لمن خشى ربه) وفيه اشارة إلى أنه لابد من

(١) الصواب أن يقل : قابل المفرد بالجمع فالمفرد هنا لفظ جزاء والجمع لفظ جنات .

دوام الخوف ، أما قبل العمل فالحاصل خوف الاختلال ، وأما بعد العمل فالحاصل خوف الخلال ، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قوله (عدن) يفيد الاقامة (لا يخرجون منها) (وماهم منها بمخرجين) (لا يبغون عنها حولا) يقال عدن بالمكان أقام ، وروى أن جنات عدن وسط الجنة ، وقيل عدن من المعدن أي هي معدن النعيم والأمن والسلامة ، قال بعضهم إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجنة أو الجنين ، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة يطوفون العالم فى ساعة واحدة فكأنه تعالى قال إنها فى إيصال المكلف إلى مشتهياته فى غاية الإسراع . مثل حركة الجن ، مع أنها دار إقامة وعدن ، وإما من الجنون فهو أن الجنة ، بحيث لو رآها العاقل يصير كالمجنون ، لولا أن الله بفضله يثبته ، وإما من الجنة فلأنها جنة واقية تقيك من النار ، أو من الجنين ، فلأن المكلف يكون فى الجنة فى غاية التنعم ، ويكون كالجنين لا يمسه برد ولا حر (لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً) .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قوله (تجرى) إشارة إلى أن الماء الجارى ألطف من الراكد ، ومن ذلك النظر إلى الما الجارى ، يزيد نوراً فى البصر بل كأنه تعالى قال : طاعتك كانت جارية ما دمت حياً على ماقال (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) فوجب أن تكون أنهار إكرامى جارية إلى الأبد ، ثم قال من تحتها إشارة إلى عدم التنغيص ، وذلك لأن التنغيص فى البستان ، أما بسبب عدم الماء الجارى فذكر الجرى الدائم ، وإما بسبب الغرق والكثرة ، فذكر من تحتها ، ثم الألف واللام فى الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة فى القرآن ، وهى نهر الماء واللبن والعسل والخمر ، واعلم أن النهار والأنهار من السعة والضياء ، فلا تسمى الساقية نهراً ، بل العظيم هو الذى يسمى نهراً بدليل قوله (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار) فعطف ذلك على البحر .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولا والرضا ثانياً ، وروى أنه عليه السلام قال « إن الخلود فى الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة

﴿ أما الصفة الأولى ﴾ وهى الخلود ، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام ، وهذه الأوصاف الثلاثه إنما حصلت ، لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل .

﴿ وأما الصفة الثانية ﴾ وهى الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح ، فجنة الجسد هى الجنة الموصوفة وجنة الروح هى رضا الرب ، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ومنتهى أمره من عالم العقل والروح ، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله ، ثم إنه قدم رضى الله عنهم على قوله (ورضوا عنه) لأن الأزلى هو المؤثر فى المحدث ، والمحدث لا يؤثر فى الأزلى .

﴿ المسألة التاسعة ﴾ إنما قال (رضى الله عنهم) ولم يقل رضى الرب عنهم ولا سائر الأسماء

لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله ، لأنه هو الإسم الدال على الذات والصفات بأسرها أعنى صفات الجلال وصفات الإكرام ، فلو قال رضى الرب عنهم لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لأن المربى قد يكتفى بالقليل ، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة ، وفى مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة ، فقوله (رضى الله عنهم) يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة .

﴿ المسألة العاشرة ﴾ اختلفوا فى قوله (رضى الله عنهم) فقال بعضهم معناه رضى أعمالهم ، وقال بعضهم المراد رضى بأن يمدحهم ويعظمهم ، قال لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله ، وهذا هو الأقرب ، وأما قوله (ورضوا عنه) فالمراد أنه رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب .

قوله تعالى :﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الخوف فى الطاعة حال حسنة قال تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) ولعل الخشية أشد من الخوف ، لأنه تعالى ذكره فى صفات الملائكة مقروناً بالإشفاق الذى هو أشد الخوف فقال (هم من خشية ربهم مشفقون) والكلام فى الخوف والخشية مشهور .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلا على فضل العلم والعلماء ، وذلك لأنه تعالى قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فدلت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية ، وهذه الآية وهى قوله (ذلك لمن خشى ربه) تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم : هذه الآية تدل على أن المرء لا ينتهى إلى حد يصير معه آمناً بأن يعلم أنه من أهل الجنة ، وجعل هذه الآية دالة عليه . وهذا المذهب غير قوى . لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة ، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام « أعرفكم بالله أخوفكم من الله ، وأنا أخوفكم منه » والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تفسير سورة «لم يكن»

وهي مكّيةٌ في قولِ يحيى بنِ سلام. ومدنيةٌ في قول ابنِ عباس والجمهور[١]. وهي تسعُ آيات.

وقد جاء في فَضْلِها حديثٌ لا يصحُّ، رويناه عن محمد بن عبد الله الحضرميّ قال: قال لي أبو عبد الرحمن بن نُمَير: اذهبْ إلى الهيثم[٢] الخشَّاب فاكتُبْ عنه فإنه قد كَتَب، فذهبت إليه، فقال: حدَّثنا مالك بن أنس، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمُ الناسُ ما في [لَمْ يَكُنِ] الذين كفروا مِن أهل الكِتابِ، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ، فتعلَّموها» فقال رجلٌ من خزاعةَ: وما فيها من الأجر يا رسولَ الله؟ قال: «لا يقرؤها منافقٌ أبداً، ولا عبدٌ في قلبه شكٌّ في الله. والله إنَّ الملائكةَ المقرَّبين يقرؤونها مُنذُ خَلَق الله السمواتِ والأرضَ وما يَفْتُرُون من قراءتها. وما مِن عبدٍ يقرؤها إلَّا بعث الله إليه ملائكةً يحفظونه في دينه ودنياه، ويَدْعون له بالمغفرة والرحمة». قال الحَضْرميُّ: فجئتُ إلى أبي عبدِ الرحمن بن نُمير، فألقيتُ هذا الحديثَ عليه، فقال: هذا قد كفانا مؤونَتَه، فلا تَعُدْ إليه[٣].

قال ابن العربيّ[٤]: روى إسحاقُ بنُ بشرٍ الكاهليُّ عن مالك بن أنس، عن يحيى ابن سعيد، عن ابن المسيِّب، عن أبي الدرداء، عن النبيِّ ﷺ: «لو يَعْلمُ الناسُ ما في

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٣١٥، وأخرجه عن ابن عباس ابن مردويه كما في الدر المنثور ٦/ ٣٧٧.

(٢) في النسخ: أبي الهيثم، والمثبت من المحدث الفاصل ص ٣١٥، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٣) يعني أن رواية مثل هذا الحديث تبين حال راويه؛ لأنه حديث باطل لا أصل له. قاله الخطيب، كما ذكر الحافظ في اللسان ٦/ ٢٠٦ في ترجمة الهيثم بن خالد الكوفي الخشاب.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٥٧، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

[لم يكن] الذين كفروا، لعطَّلوا الأهلَ والمالَ ولتعلَّموها»[١]. حديثٌ باطلٌ، وإنَّما الحديثُ الصحيحُ ما روي عن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأبيّ بنِ كعب: «إنَّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك: «لم يكن الذين كفروا» قال: وسمَّاني لك!؟ قال: «نعم»، فبَكَى.

قلت: خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٢]. وفيه من الفقهِ قراءةُ العالِم على المتعلِّم. قال بعضُهم: إنَّما قرأ النبيُّ ﷺ على أُبيٍّ، ليعلِّم الناسَ التواضُعَ؛ لئلَّا يأنَفَ أحدٌ من التعلُّم والقراءةِ على مَن دونَه في المنزلة.

وقيل: لأن أُبيًّا كان أسرعَ أخذًا لألفاظِ رسولِ اللهِ ﷺ، فأراد بقراءته عليه أن يأخذه ألفاظَه ويقرأ كما سمع منه، ويعلِّم غيرَه. وفيه فضيلةٌ عظيمةٌ لأبيٍّ؛ إذ أَمَر اللهُ رسولَه أن يقرأ عليه.

قال أبو بكر الأنباريُّ: وحدَّثنا أحمد بنُ الهيثم بن خالد، قال: حدَّثنا علي بن الجعد، قال: حدَّثنا عكرمةُ، عن عاصم، عن زِرّ بن حُبيش قال: في قراءةِ أبيّ بن كعب: ابنُ آدمَ لو أُعطِيَ واديًا من مال لالتمسَ ثانيًا، ولو أُعطي واديَيْنِ من مالٍ لالتمسَ ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا الترابُ، ويتوبُ الله على مَن تاب[٣]. قال عكرمةُ: قرأ عليّ عاصم: «لم يَكُنْ» ثلاثين آيةً، هذا فيها. قال أبو بكر: هذا باطلٌ عند أهلِ العلم؛ لأنَّ قراءَتَي ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو متَّصِلَتان بأبيّ بن كعب، لا يُقْرأ فيهما هذا المذكورُ في «لم يكن» ممَّا هو معروفٌ في حديثِ رسولِ الله ﷺ، على أنَّه من كلامِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام، لا يَحْكيه عن ربِّ العالمين في القرآن. وما رواه اثنان معهما الإجماعُ أَثْبتُ ممَّا يَحْكيه واحدٌ مخالِفاً[٤] مذهبَ الجماعةِ.

---

(١) أخرجه بهذا الإسناد الواحدي في الوسيط ٤/ ٥٣٨ ، وسقط قوله: عن أبي الدرداء، من مطبوع أحكام القرآن.

(٢) صحيح البخاري (٣٨٠٩)، وصحيح مسلم (٧٩٩)، وهو عند أحمد (١٢٣٢٠)، وسلف ١٧/ ١٦٢ .

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (١٢٢٠٢)، والترمذي (٣٧٩٣) من طريق شعبة، عن عاصم، عن زر، عن أبي بن كعب ﷺ. وينظر ما سيأتي ص٤٥٠ من هذا الجزء.

(٤) في (د) و(م): مخالف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كذا قراءةُ العامَّة، وخَطُّ المصحف. وقرأ ابن مسعود: «لم يَكُنِ المشركون وأهلُ الكتابِ مُنْفَكِّين»[١] وهذه قراءةٌ على التفسير؛ قال ابن العربيِّ[٢]: وهي جائزةٌ في مَعرِض البيان، لا في مَعْرِض التلاوة، فقد قرأ النبيُّ ﷺ في روايةِ الصحيح: «فَطَلِّقُوهنَّ لقُبُل عِدَّتهنَّ»[٣] وهو تفسيرٌ؛ فإنَّ التلاوةَ هو ما كان في خطِّ المصحف.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني اليهودَ والنصارى. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ في موضعِ جرٍّ عطفاً على «أهل الكتاب». قال ابن عباس: «أهلُ الكتابِ»: اليهودُ الذين كانوا بيثرِبَ، وهم قُرَيظَةُ والنَّضِيرُ وبنو قَيْنُقاع. والمشركون: الذين كانوا بمكةَ وحَوْلَها، والمدينةِ والذين حولَها، وهم مشركو قريش. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: مُنْتَهين عن كفرهم، زائلين[٤] عنه ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: أتتهم ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ أي: محمدٌ ﷺ.

وقيل: الانتهاءُ: بلوغُ الغاية، أي: لم يكونوا لِيَبلُغوا نهايةَ أعمارِهم فيموتوا، حتى تأتيهم البينةُ. فالانفكاكُ على هذا بمعنى الانتهاء.

وقيل: «مُنفكِّين»: زائلين، أي: لم تكن مدتُهم لتزولَ حتى يأتيهم رسولٌ.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٧٦.

(٢) في أحكام القرآن ٤/١٩٥٧، وما قبله منه.

(٣) صحيح مسلم (١٤٧١): (١٤) من حديث ابن عمر ﷺ، وفيه: «... فطلقوهن في قبل عدَّتهن». وينظر ما سلف ٢١/٣٣ عند تفسير الآية الأولى من سورة الطلاق.

(٤) في (م): مائلين.

والعربُ تقول: ما انفكَكْتُ أفعلُ كذا، أي: ما زِلْتُ. وما انفكَّ فلان قائماً: أي: ما زال قائماً.

وأصلُ الفَكِّ: الفتحُ؛ ومنه: فكُّ الكتاب[١]، وفَكُّ الخَلخال، وفك السالم. قال طَرَفة:

فـآلَيْـتُ لا يَـنـفَـكُّ كَـشْـحـي بـطـانـةً لِعَـضْـبٍ رقيـقِ الشَّـفْـرَتَـيْـنِ مُـهَـنَّـدِ[٢]

وقال ذو الرُّمة:

حَـرَاجِـيـجُ مـا تَـنْـفَـكُّ إلَّا مُـنـاخـةً على الخَسْفِ أَوْ نَرْمي بها بلداً قَفْرا[٣]

يريد: ما تنفكُّ مُناخةً، فزاد «إلَّا»[٤].

وقيل: «منفكِّين»: بارِحين، أي: لم يكونوا ليبرحوا ويُفارِقوا الدنيا، حتى تأتيهم البينة.

وقال ابن كيسان: أي: لم يكن أهلُ الكتابِ تارِكينَ صفةَ محمدٍ ﷺ في كتابهم، حتى بُعِث، فلمَّا بُعث حَسَدوه وجَحَدوه، وهو كقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩]. ولهذا قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الآية. وعلى هذا فقولُه: «والمُشْرِكينَ»، أي: ما كانوا يسيئون القولَ في محمدٍ ﷺ حتى بُعِث؛ فإنَّهم كانوا يُسمُّونه الأمين، حتى أتتهم البينةُ على لسانه وبُعث إليهم، فحينئذٍ عادَوْه.

---

(١) وهو إزالةُ ختمه وفتحُه. تفسير الرازي ٣٢/ ٤١ .

(٢) ديوان طرفة ص ٣٧ . قوله: آليت، أي: حلفت. لا ينفك: لا يزال. والكشح: الجنب، والمعنى: لا يزال حنبي لاصقاً بالسيف. والعَضْب: السيف القاطع، وشفرتاه: حدَّاه. ومهند: منسوب إلى الهند. شرح المعلقات للنحاس ١/ ٨٩ ، وللتبريزي ص ١١٦ .

(٣) ديوان ذي الرمة ٣/ ١٤١٩ . قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: حراجيج: ضُمْرٌ (يعني النوق). ما تنفك: ما تزال. والخسف: الجوع، وهو أن تبيت على غير علف.

(٤) ضرائر الشعر لابن عصفور ص ٧٥ - ٧٦ ، وهي في قول بعض النحويين ليست زائدة، فقدَّر في «تنفك» التمام، ونصب مناخة على الحال، والمعنى: ما تنفصل عن جهد ومشقة إلا في حال إناختها على الخسف، ورَمْي البلد القفر بها، أي: تنتقل من شدة إلى شدة. أمالي ابن الشجري ٢/ ٣٧٣ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨١ .

وقال بعض اللُّغويين: «مُنْفَكِّينَ»: هالكين، من قولهم: انفكَّ صَلَا المرأةِ[١] عند الولادة، وهو أن ينفصل فلا يلتئم فتَهلك. المعنى: لم يكونوا معذَّبين ولا هالكين، إلَّا بعد قيامِ الحجةِ عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

وقال قومٌ في «المشركين»: إنَّهم من أهل الكتاب؛ فمِن اليهود من قال: عزيرٌ ابنُ الله. ومن النصارى مَن قال: عيسى هو الله. ومنهم مَن قال: هو ابنه. ومنهم مَن قال: ثالثُ ثلاثةٍ.

وقيل: أهلُ الكتابِ كانوا مؤمنين، ثم كفروا بعد أنبيائهم. والمشركون وُلِدوا على الفِطرة، فكفروا حين بلغوا. فلهذا قال: «والمُشْرِكِينَ».

وقيل: المشركون وصفُ أهلِ الكتابِ أيضاً؛ لأنَّهم لم ينتفعوا بكتابهم، وتركوا التوحيد. فالنصارى مُثَلِّثةٌ، وعامَّةُ اليهودِ مُشَبِّهةٌ، والكلُّ شِركٌ. وهو كقولك: جاءني العقلاءُ والظُّرفَاء، وأنتَ تريد أقوامًا بأعيانهم[٢]، تَصِفُهم بالأمرين. فالمعنى: مِن أهلِ الكتابِ المشركين.

وقيل: إنَّ الكفر هنا هو الكفرُ بالنبيِّ ﷺ، أي: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ من اليهود والنصارى، الذين هم أهلُ الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ الأوثان من العرب وغيرهم ـ وهم الذين ليس لهم كتاب ـ مُنْفَكِّين؛ قال القشيريُّ: وفيه بعدٌ؛ لأنَّ الظاهر من قوله: «حتى تأتيهم البينةُ. رسولٌ مِن اللهِ» أنَّ هذا الرسول هو محمدٌ ﷺ. فيبعُدُ أن يُقال: لم يكن الذين كفروا بمحمدٍ ﷺ منفكِّين حتى يأتيهم محمد، إلَّا أنْ يقال: أراد: لم يكن الذين كفروا الآنَ بمحمدٍ؛ وقد[٣] كانوا من قبلُ

---

(١) كذا نقل المصنف عن البغوي ٤/ ٥١٣، ومثله في البحر ٨/ ٤٩٨. وذكر أبو عبيد في الغريب المصنف ١/ ٦٨ عن الأصمعي: انهكَّ صلا المرأة انهكاكاً، ومثله في تهذيب اللغة ٥/ ٣٤١، ومجمل اللغة ٣/ ٨٩١، والصحاح (هكك)، واللسان (هكك). والصلا: وسط الظهر، أو ما انحدر من الوَرِكين. القاموس (صلو).

(٢) في النسخ الخطية: بعينهم.

(٣) في (م): وإن.

مُعَظِّمين له، بمنتهين عن هذا الكفر، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم، ويبيِّن لهم الآيات، فحينئذٍ يؤمنُ قوم.

وقرأ الأعمشُ وإبراهيم: «والمشركُونَ» رفعاً، عطفاً على «الذين»[١]. والقراءةُ الأولى أَبْيَنُ؛ لأنَّ الرفع يصير فيه الصِّنفان كأنهم من غير أهل الكتاب.

وفي حرفِ أبيٍّ: «فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكِّين»[٢]. وفي مصحفِ ابنِ مسعود: «لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكِّين». وقد تقدَّم[٣].

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ قيل: حتى أتتهم. والبيِّنَةُ: محمدٌ ﷺ. ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بَعيثٌ من الله جلَّ ثناؤه. قال الزَّجَّاج[٤]: «رسولٌ» رفع على البدل من «البينة». وقال الفرَّاء: أي: هي رسولٌ من الله، أو: هو رسولٌ من الله؛ لأنَّ البينة قد تذكَّر فيقال: بيِّنتي فلان. وفي حرفِ أُبيٍّ وابن مسعود: «رَسُولًا» بالنصب على القطع[٥].

﴿يَتْلُواْ﴾ أي: يقرأ. يقال: تلا يتلو تلاوةً. ﴿صُحُفًا﴾ جمع صحيفة، وهي ظرفُ المكتوب. ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ قال ابن عباس: من الزُّور والشكِّ والنفاق والضَّلالة. وقال قتادة: من الباطل. وقيل: من الكذب والشُّبُهات والكفر، والمعنى واحد. أي: يقرأ ما تتضمَّنُ الصحفُ من المكتوب، ويدلُّ عليه أنه كان يتلو عن ظَهْرِ قلبِه لا عن كتاب؛ لأنه كان أمِّيًا لا يكتبُ ولا يقرأ.

و«مُطَهَّرةً»: مِن نَعْتِ الصُّحف، وهو كقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ [عبس:١٣]، فالمطهرةُ نعتٌ للصُّحفِ في الظاهر، وهي نعتٌ لمَا في الصُّحف من القرآن.

---

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٤٩٨ دون نسبة.

(٢) ذكرها الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣١٦ بلفظ: «ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين».

(٣) في بداية تفسير هذه الآية.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٤٩ .

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ ، والقراءات الشاذة ص ١٧٦ ، والكشاف ٤/ ٢٧٤ .

وقيل: «مطهرة» أي: ينبغي ألَّا يَمَسَّها إلَّا المطهَّرون، كما قال في سورة الواقعة حَسْبَ ما تقدَّم بيانُه[١].

وقيل: الصُّحف المطهَّرة: هي التي عند الله في أمِّ الكتاب، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. قال الحسن: يعني الصُّحفَ[٢] المطهَّرةَ في السماء.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: مستقيمةٌ مستويةٌ مُحْكَمةٌ، من قول العرب: قام يقوم: إذا استوى وصح.

وقال بعضُ أهلِ العلم: الصحفُ هي الكتب، فكيف قال: في صحفٍ فيها كُتب؟

فالجواب: أنَّ الكتب هنا بمعنى الأحكام؛ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] بمعنى: حَكَم. وقال ﷺ: «والله لأقضِينَّ بينكما بكتابِ الله» ثم قضى بالرَّجم[٣]، وليس ذِكْرُ الرَّجْمِ مسطوراً في الكتاب، فالمعنى: لأقضينَّ بينكما بحُكْمِ الله تعالى، وقال الشاعر:

ومالَ[٤] الولاءُ بالبلاءِ فمِلْتُمُ ... وما ذاكَ قال اللهُ إذ هو يَكْتُبُ[٥]

وقيل: الكتبُ القيِّمة: هي القرآن، فجعله كتباً لأنه يشتملُ على أنواعٍ من البيان.

---

(١) عند تفسير الآية (٧٩) منها.

(٢) في (ز) و(ظ): بالصحف، وفي (د): في الصحف، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٧ .

(٣) أخرجه مطولاً أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٦٩٥ ، ٢٦٩٦)، ومسلم (١٦٩٧ ، ١٦٩٨) من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، وسلف ٦/ ١٤٥ و٧/ ٢٥١ . والكلام بنحوه في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٤ ، وغريب الحديث له ١/ ٧٠ .

(٤) في النسخ: وما، والمثبت من المصادر على ما يأتي.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص ٩٤ لابن قتيبة، وغريب الحديث له ١/ ٧٠ ، ونسبه ابن قتيبة للنابغة الجعدي، وهو في ديوانه ص ١٠ برواية:

ومال الولاء بالبلاء فملتم ... علينا وكان الحقُّ أن تتقربوا

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى. خصَّ أهلَ الكتابِ بالتفريق دون غيرهم، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين؛ لأنَّهم مظنونٌ بهم عِلْمٌ، فإذا تفرَّقوا كان غيرهم ممَّن لا كتابَ له أَدْخَلُ في هذا الوصف.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: أتتهم البيِّنةُ الواضحة. والمعنيُّ به محمدٌ ﷺ، أي: بالقرآن[1] موافقاً لمَا في أيديهم من الكتاب بنَعْتِه وصِفَتِه. وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوَّته، فلمَّا بُعِث جحدوا نبوَّته وتفرَّقوا، فمنهم مَن كفر بغياً وحسداً، ومنهم مَن آمَن، كقوله تعالى: ؛ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

وقيل: «البينة»: البيانُ الذي في كتبهم أنه نبيٌّ مرسَلٌ. قال العلماء: مِن أوّل السورة إلى قوله «قَيِّمَةٌ»: حكمها فيمَن آمَن مِن أهل الكتاب والمشركين. وقوله: «وما تفرق»: حُكْمُه فيمَن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيامِ الحجج.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي: وما أُمِر هؤلاء الكفارُ في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: ليوحِّدوه. واللامُ في «لِيعبدوا» بمعنى «أنْ»، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي: أنْ يبيِّن، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]، و﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]. وفي حرفِ عبدِ الله: «وما أُمِروا إلَّا أنْ يَعبدوا اللهَ»[2].

---

(١) في (م): القرآن.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ .

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: العبادةَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]. وفي هذا دليلٌ على وجُوب النيةِ في العبادات؛ فإنَّ الإخلاص مِن عَمَلِ القلب، وهو أن[1] يرادَ به وجهُ الله تعالى لا غيره.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مائلين عن الأديان كلِّها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: «حنفاء»: على دين إبراهيمَ عليه السلام[2]. وقيل: الحَنِيف: مَن اخْتَتَن وحج؛ قاله سعيد بن جبير[3]. قال أهلُ اللغةِ: وأصلُه أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام، أي: مالَ إليه.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بحدودها في أوقاتها ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُعطوها عند مَحِلِّها ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: ذلك الدينُ الذي أُمِروا به دِينُ القَيِّمة، أي: الدينُ المستقيم. وقال الزجَّاج[4]: أي: ذلك دِينُ المِلَّةِ المستقيمة، و«القيِّمة» نعتٌ لموصوفٍ محذوف. أو يقال: دِينُ الأمةِ القَيِّمة بالحق، أي: القائمةِ بالحقّ.

وفي حرف عبد الله: «وذلك الدِّينُ القَيِّمة»[5]. قال الخليل: «القَيِّمة» جمعُ القيِّم، والقيم والقائم واحد[6].

وقال الفرَّاء: أضاف الدِّين إلى القيمة وهو نعتُه؛ لاختلاف اللَّفْظَين. وعنه أيضاً:

(١) في (م): وهو الذي، والمثبت من النسخ الخطية، والكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٤٣١ .

(٢) ذكره الرازي ٣٢/ ٤٦ عن مجاهد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣١٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨ .

(٤) في معاني القرآن ٥/ ٣٥٠ .

(٥) في النسخ: القيم، والمثبت من معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٧٣ ، والكشاف ٤/ ٢٧٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨ ، والبحر ٨/ ٤٩٩ ، قال أبو حيان: فالهاء على هذه القراءة للمبالغة، أو أنث على أن عنَى بالدين الملة، كقوله: ما هذه الصوت، يريد: ما هذه الصيحة.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٥١٤ .

هو من بابِ إضافةِ الشيءِ إلى نفسه، ودخلت الهاءُ للمدح والمبالغة[١]. وقيل: الهاءُ راجعةٌ إلى الملَّة أو الشريعة.

وقال محمد بن الأشعث الطَّالقانيُّ[٢]: «القَيِّمة» هاهنا: الكتبُ التي جرى ذِكْرها، والدِّينُ مضافٌ إليها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ «المشركين»: معطوفٌ على «الَّذين»، أو يكونُ مجروراً معطوفاً على «أهل». ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين[٣]، من قولهم: بَرَأ الله الخَلْقَ، وهو البارئُ الخالق، وقال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

الباقون بغير همزٍ، وشدِّ الياءِ عِوضاً منه. قال الفَرَّاء[٤]: إنْ أُخذت البَرِيَّة من البَرَى، وهو التراب، فأصلُه غيرُ الهمز؛ تقول منه: بَرَاه اللهُ يبرُوه بَرْوًا، أي: خَلَقه.

قال القُشَيْرِيُّ: ومَن قال البَرية من البَرَى، وهو التراب، قال: لا تدخلُ الملائكة تحت هذه اللفظة. وقيل: البَرِيَّةِ: مِن بَرَيْت القلَم، أي: قدَّرته، فتدخل فيه الملائكة. ولكنَّه قولٌ ضعيف؛ لأنَّه يجب منه تخطئةُ مَن هَمَز.

وقولُه: «شرُّ البَرِيَّة» أي: شرُّ الخليقة؛ فقيل: يحتملُ أن يكون على التعميم. وقال

---

(١) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٢، وتفسير البغوي ٤/ ٥١٤، وتفسير الرازي ٣٢/ ٤٧.

(٢) قوله في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠٨.

(٣) السبعة ص ٦٩٣، والتيسير ص ٢٢٤.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الجوهري في الصحاح (برا).

قومٌ: أي: هم شرُّ البريةِ الذين كانوا في عصر النبيِّ ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] أي: على عالَمِي زمانِكم. ولا يبعدُ أن يكون في كفار الأمم قبلَ هذا مَن هو شرٌّ منهم، مثل فرعون وعاقرِ ناقةِ صالح. وكذا «خَيْرُ البَرِيَّة»: إمَّا على التعميم، أو خير بَرِيةِ عصرِهم.

وقد استدلَّ بقراءة الهمز مَن فضَّل بني آدمَ على الملائكة، وقد مضى في سورة البقرة القولُ فيه(١). وقال أبو هريرةَ ﷺ: المؤمنُ أكرمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ من بعض الملائكة الذين عنده(٢).

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي: ثوابُهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالِقهم ومالِكِهم ﴿جَنَّٰتُ﴾ أي: بساتين ﴿عَدْنٍ﴾ أي: إقامة. والمفسِّرون يقولون: «جَناتُ عَدْنٍ» بُطْنانُ الجَنَّةِ، أي: وَسَطُها؛ تقول: عَدَن بالمكان يَعْدِن عُدُوناً: أقام. ومَعْدِنُ الشيء: مَرْكزُه ومُسْتقَرُّه. قال الأعشى:

وإنْ يُستضافوا إلى حُكْمِه ... يُضافوا إلى راجِحٍ قد عَدَنْ(٣)

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: رضِيَ أعمالَهم؛ كذا قال ابن عباس(٤). ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي: رَضُوا هم بثوابِ الله عزَّ وجلَّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الجنة ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: خاف ربَّه، فتناهَى عن المعاصي.

---

(١) ١/ ٤٣٠.

(٢) أخرجه موقوفاً البيهقي في الشعب (١٥٢)، وأخرجه ابن ماجه (٣٩٤٧)، وابن حبان في المجروحين ٣/ ٩٩ من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، والموقوف والمرفوع في إسناديهما يزيد بن سنان أبو المهزِّم، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك.

(٣) ديوان الأعشى ص ٦٩ برواية: يضافوا إلى هادنٍ قد رَزَنْ، وهو في اللسان (وزن) برواية: عادلٍ قد وَزَنْ.

(٤) ذكره الرازي ٣٢/ ٥٦ دون نسبة.

تفسير سورة لم يكن

وهى مدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ـ وهو ابن سلمة ـ أخبرنا على ـ هو ابن زيد ـ عن عمار بن أبى عمار قال : سمعت أبا حَيَّة البدرى ـ وهو : مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى ـ قال : لما نزلت : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ إلى آخرها ،قال جبريل : يا رسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبياً . فقال النبى ﷺ لأُبى : « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة » . قال أبى : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فبكى أبى (١) .

حديث آخر : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ » قال : وسمانى لك ؟ قال : « نعم » . فبكى .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث شعبة ، به (٢).

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا سفيان ، حدثنا أسلم المنقرى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبْزَى ، عن أبيه ، عن أبى بن كعب قال : قال لى رسول الله ﷺ : « إنى أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا » . قلت : يا رسول الله ، وقد ذُكرتُ هناك ؟ قال : « نعم» . فقلت له : يا أبا المنذر ، فَفَرحت بذلك . قال : وما يمنعنى والله يقول : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨] . قال مؤمل : قلت لسفيان : القراءة فى الحديث؟ قال : نعم . تفرد به من هذا الوجه (٣) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، عن عاصم بن بَهْدَلَة ، عن زر بن حبيش ، عن أبى بن كعب قال : إن رسول الله ﷺ قال لى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن » . قال : فقرأ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه (٤) ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه (٥) لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره .

---

(١) المسند (٣/ ٤٨٩) .

(٢) المسند (٣/ ١٣٠) وصحيح البخارى (٤٩٥٩) وصحيح مسلم برقم (٧٩٩) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦٩١) .

(٣) المسند (٥/ ١٢٣) .

(٤ ، ٥) فى أ : « فأعطيته » .

ورواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، به [١]. وقال : حسن صحيح .

طريق أخرى : قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن خليد الحلبى ،حدثنا محمد بن عيسى الطباع ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبى بن كعب ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر ، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن » . قال : بالله آمنت ، وعلى يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . قال : فرد النبى ﷺ القول . [قال] [٢] : فقال : يارسول الله ، أذكرت هناك ؟ قال : « نعم ، باسمك ونسبك فى الملأ الأعلى » . قال : فاقرأ إذاً يارسول الله [٣] .

هذا غريب من هذا الوجه ، والثابت ما تقدم . وإنما قرأ عليه النبى ﷺ هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فإنه ـ كما رواه أحمد والنسائى ،من طريق أنس ، عنه[٤]، ورواه أحمد وأبو داود ، من حديث سليمان بن صُرَد عنه [٥] ، ورواه أحمد عن عفان ، عن حماد ، عن حميد ، عن أنس ، عن عبادة بن الصامت ، عنه [٦]، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عنه [٧] ، كان قد أنكر على إنسان ،وهو : عبد الله بن مسعود ، قراءة شىء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبى ﷺ فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : « أصبت » . قال أبى : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله ﷺ فى صدره ، قال أبى : فَفِضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف . فقلت :« أسأل الله معافاته ومغفرته ». فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف . كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: **﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾**، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، والله أعلم .

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال : أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟» . قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ، ومُطوِّف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبى ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : **﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾** الآية [الفتح:٢٧] ، كما تقدم .

وروى الحافظ أبو نُعَيم فى كتابه «أسماء الصحابة» من طريق محمد بن إسماعيل الجعفرى المدنى:

---

(١) المسند (٥/ ١٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٧٩٣) .

(٢) زيادة من م ، أ .

(٣) المعجم الكبير (١/ ٢٠٠) .

(٤) المسند (٥/ ١٢٢) وسنن النسائى (٢/ ٥٤) .

(٥) المسند (٥/ ١٢٤) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٧) .

(٦) المسند (٥/ ١١٤).

(٧) المسند (٥/ ١٢٧) وصحيح مسلم برقم (٨٢٠) وسنن أبى داود برقم (١٤٧٨) وسنن النسائى (٢/ ١٥٣) .

حدثنا عبد الله بن سلمة بن أسلم ، عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن أبى حكيم المدنى ، حدثنى فُضَيل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليسمع قراءة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فيقول : أبشر عبدى، فوعزتى لأمكننه (١) لك فى الجنة حتى ترضى » .

حديث غريب جداً . وقد رواه الحافظ أبو موسى المدينى وابن الأثير ، من طريق الزهرى ، عن إسماعيل بن أبى حكيم ،عن نَظير المزنى ــ أو : المدنى ــ عن النبى ﷺ: « إن الله ليسمع قراءة ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ، ولأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » (٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾ .

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عَبَدةُ الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم. وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعنى: منتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة.

﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى :﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البينة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملأ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٣ــ ١٦] .

وقوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة : عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل .

قال قتادة : ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء.

وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) فى م : « لأملأن » ، وفى أ : « لأمكنن » .

(٢) أسد الغابة لابن الأثير (٤/٥٤٩) وذكره الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٣/٥٢٨) من طريق أبى موسى ، وهى من طريق محمد بن إسماعيل بن جعفر ، عن عبد الله بن سلمة ، عن الزهرى به ، وقال: « عبد الله بن سلمة واهى الحديث » .

كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً ، كما جاء فى الحديث المروى من طرق : «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة ». قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » (١).

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام» (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾ وهى أشرف عبادات البدن، ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء (٣) والمحاويج .﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة .

وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهرى والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة : أنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذرأها .

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار ــ الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم ــ بأنهم خير

(١) جاء هذا الحديث من حديث أبى هريرة ، وأنس ، وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية ، وعمرو بن عوف المزنى ، وعوف بن مالك ، وأبى أمامة ، وجابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهم ــ قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هو حديث صحيح مشهور » وانظر : تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١/٤٤٧ ــ ٤٥٠) .

(٢) عند تفسير الآية : ١٦١ .

(٣) فى أ : « الفقير » .

البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية [١] على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ .

﴿ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ أى : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبو معشر ، عن أبى وهب ــ مولى أبى هريرة ــ عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، كلما كانت هَيْعَة استوى عليه . ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « رجل فى ثُلَّة من غنمه ، يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة . ألا أخبركم بشر[٢] البرية ؟ » . قالوا: بلى . قال : « الذى يَسأل بالله، ولا يُعطى به » [٣] .

آخر تفسير سورة « لم يكن » [٤]

(١) فى أ : « من البشر » .　　(٢) فى أ : « بخير » .

(٣) المسند (٢/٣٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/٢٧٩) : « أبو معشر ــ نجيح ــ ضعيف ، وأبو معشر (كذا فيه ، والصواب : أبو وهب) مولى أبى هريرة لم أعرفه » .

(٤) فى م : « آخر تفسيرها » .

٩٨ ـــ سورة البينة
(مدنية وهى ثمان آيات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) ٩٨ البينة
رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) ٩٨ البينة

﴿ سورة البينة مدنية مختلف فيها وآيها ثمان ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) أى اليهود والنصارى وإيرادهم بذلك العنوان للإشعار بعلة مانسب إليهم من الوعد باتباع الحق فإن مناط ذلك وجدانهم * له فى كتابهم وإيراد الصلة فعلا لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم (والمشركين) أى عبدة الأصنام * وقرىء والمشركون عطفاً على الموصول (منفكين) أى عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث فى آخر الزمان والعزم على إنجازه وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لاريب فيه حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ويقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ماقلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم وأما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ماشاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم كما يشهد به أنهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل هو المذكور فى كتابهم وكانوا يغرونهم بتغيير نعوته عليه السلام وانفكاك الشىء عن الشىء أن يزايله بعد التحامه كالعظم إذا انفك من مفصله وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم أى لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور * بل كانوا مجمعين عليه عازمين على إنجازه (حتى تأتيهم البينة) التى كانوا قد جعلوا إتيانها ميقاتاً لاجتماع الكلمة والاتفاق على الحق فجعلوه ميقاتاً للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد والتعبير عن إتيانها بصيغة المضارع باعتبار حال المحكى لا باعتبار حال الحكاية كما فى قوله تعالى واتبعوا ماتتلو الشياطين
٢ أى تلت وقوله تعالى (رسول) بدل من البينة عبر عنه عليه السلام بالبينة للإيذان بغاية ظهور أمره * وكونه ذلك الموعود فى الكتابين وقوله تعالى (من الله) متعلق بمضمر هو صفة لرسول مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أى رسول وأى رسول كائن منه تعالى وقوله * تعالى (يتلو) صفة أخرى له أو حال من الضمير فى متعلق الجار (صحفاً مطهرة) أى منزهة عن الباطل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أو من أن يمسه غير المطهرين ونسبة تلاوتها إليه عليه

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ٩٨ البينة

وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ ٩٨ البينة

وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ
وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ٩٨ البينة

٣ السلام من حيث إن تلاوة مافيها بمنزلة تلاوتها وقوله تعالى (فيها كتب قيمة) صفة لصحفا أو حال
من ضميرها فى مطهرة ويجوز أن يكون الصفة أو الحال الجار والمجرور فقط وكتب مرتفعاً به على
٤ الفاعلية ومعنى قيمة مستقيمة ناطقة بالحق والصواب وقوله تعالى (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب)
الخ كلام مسوق لغاية تشنيع أهل الكتاب خاصة وتغليظ جناياتهم ببيان أن مانسب إليهم من الانفكاك
لم يكن لاشتباه مافى الأمر بل كان بعد وضوح الحق وتبين الحال وانقطاع الأعذار بالكلية وهو
السرفى وصفهم بإيتاء الكتاب المنبىء عن كمال تمكنهم من مطالعته والإحاطة بما فى تضاعيفه من الأحكام
والأخبار التى من جملتها نعوت النبى صلى الله عليه وسلم بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جار مجرى اسم
الجنس للطائفتين ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأى المذكور فى حكم فريق واحد
عبر عما صدر عنهم عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق
اعتباراً لاستقلال كل من فريقى أهل الكتاب وإيذاناً بأن انفكاكهم عن الرأى المذكور ليس بطريق
* الاتفاق على رأى آخر بل بطريق الاختلاف القديم وقوله تعالى (إلا من بعد ماجاءتهم البينة) استثناء
مفرغ من أعم الأوقات أى وما تفرقوا فى وقت من الأوقات إلا من بعد ماجاءتهم الحجة الواضحة
الدالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الموعود فى كتابهم دلالة جلية لاريب فيها كقوله تعالى
٥ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم وقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله)
جملة حالية مفيدة لغاية قبح مافعلوا أى والحال أنهم ما أمروا فى كتابهم إلا لأجل أن يعبدوا الله وقيل
* اللام بمعنى أن أى إلا بأن يعبدوا الله ويعضده قراءة إلا أن يعبدوا الله (مخلصين له الدين) أى جاعلين
* دينهم خالصاً له تعالى أو جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى فى الدين (حنفاء) مائلين عن جميع العقائد
* الزائغة إلى الإسلام (ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) إن أريد بهما مافى شريعتهم من الصلاة والزكاة
فالأمر ظاهر وإن أريد مافى شريعتنا فمعنى أمرهم بهما فى الكتابين أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم
* بجميع أحكامها التى هما من جملتها (وذلك) إشارة إلى ماذكر من عبادة الله تعالى وبالإخلاص وإقامة
* الصلاة وإيتاء الزكاة وما فيه من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته (دين القيمة) أى دين الملة
القيمة وقرىء الدين القيمة على تأويل الدين بالملة هذا وقد قيل قوله تعالى لم يكن الذين كفروا ـ إلى

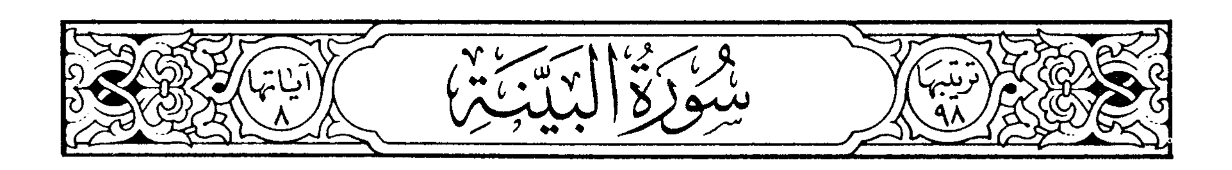
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ ٩٨ البينة

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ ٩٨ البينة

قوله ـ كتب قيمة حكاية لما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام من أنهم لاينفكون عن دينهم إلى
مبعثه ويعدون أن ينفكوا عنه حينئذ ويتفقوا على الحق وقوله تعالى وما تفرق الذين أوتوا
الكتاب الخ بيان لإخلافهم الوعد وتعكيسهم الأمر بجعلهم ماهو سبب لانفكاكهم عن دينهم الباطل
حسبما وعدوه سبباً لثباتهم عليه وعدم انفكاكهم عنه ومثل ذلك بأن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه
لا أنفك عما أنا فيه حتى أستغنى فيستغنى فيزداد فسقاً فيقول له واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى
توسر وما عكفت على الفسق إلا بعد اليسار وأنت خبير بأن هذا إنما يتسنى بعد اللتيا والتى على تقدير
أن يراد بالتفرق تفرقهم عن الحق بأن يقال التفرق عن الحق مستلزم للثبات على الباطل فكأنه قيل
وما أجمعوا على دينهم إلا من بعد ماجاءتهم البينة وأما على تقدير أن يراد به تفرقهم فرقا فمنهم من آمن
٦ ومنهم من أنكر ومنهم من عرف وعاند كما جوزه القائل فلا فتأمل (إن الذين كفروا من أهل الكتاب
والمشركين فى نار جهنم) بيان لحال الفريقين فى الآخرة بعد بيان حالهم فى الدنيا وذكر المشركين
لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة فى الكتاب بهم
ومعنى كونهم فيها أنهم يصيرون إليها يوم القيامة وإيراد الجملة الاسمية للإيذان بتحقق مضمونها لامحالة
أو أنهم فيها الآن إما على تنزيل ملابستهم لما يوجبها منزلة ملابستهم لها وإما على أن ماهم فيه من
الكفر والمعاصى عين النار إلا أنها ظهرت فى هذه النشأة بصور عرضية وستخلعها فى النشأة الآخرة
* وتظهر بصورتها الحقيقة كما مر فى قوله تعالى وإن جهنم لمحيطة بالكافرين فى سورة الأعراف (خالدين
فيها) حال من المستكن فى الخبر واشتراك الفريقين فى دخول دار العذاب بطريق الخلود لاينافى
* تفاوت عذابهم فى الكيفية فإن جهنم دركات وعذابها ألوان (أولئك) إشارة إليهم باعتبار اتصافهم
بما هم فيه من القبائح المذكورة وما فيه من معنى البعد للإشعار بغاية بعد منزلتهم فى الشر أى أولئك
* البعداء المذكورون (هم شر البرية) شر الخليقة أى أعمالا وهو الموافق لما سيأتى فى حق المؤمنين
فيكون فى حيز التعليل لخلودهم فى النار أوشرهم مقاماً ومصيراً فيكون تأكيداً لفظاعة حالهم وقرىء
٧ بالهمزة على الأصل (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء
* حال الكفرة جرياً على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب (أولئك) المنعوتون بما هو فى
* القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة (هم خير البرية) وقرىء خيار البرية وهو جمع خير
نحو جيد وجياد .

جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ٩٨ البينة

٨ (جزاؤهم) بمقابلة مالهم من الإيمان والطاعة (عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار) إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة الأغصان كما هو الظاهر لجريان الأنهار من تحتها ظاهر وإن أريد بها مجموع الأرض وما عليها فهو باعتبار الجزء الظاهر وأياً ما كان فالمراد جريانها بغير أخدود (خالدين فيها أبداً) متنعمين بفنون النعم الجسمانية والروحانية وفى تقديم مدحهم بخيرية وذكر الجزاء المؤذن بكون مامنحوه فى مقابلة ماوصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة وبما يزيدها نعيما وتأكيد الخلود بالأبود من الدلالة على غاية حسن حالهم مالا يخفى (رضى الله عنهم) استئناف مبين لما يتفضل عليهم زيادة على ماذكر من أجزية أعمالهم (ورضوا عنه) حيث بلغوا من المطالب قاصيتها وملكوا من المآرب ناصيتها وأتيح لهم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (ذلك) أى ماذكر من الجزاء والرضوان (لمن خشى ربه) فإن الخشية التى هى من خصائص العلماء بشؤن الله عز وجل مناط لجميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادة الدينية والدنيوية والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للإشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية . عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة البينة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلا .



وتسمى سورة القيامة وسورة البلد وسورة المنفكين وسورة البرية وسورة لم يكن. قال في البحر: مكية في قول الجمهور. وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار: مدنية قاله ابن عطية، وفي كتاب التحرير مدنية وهو قول الجمهور، وروى أبو صالح عن ابن عباس أنها مكية واختاره يحيى بن سلام انتهى. وقال ابن الفرس: الأشهر أنها مكية ورواه ابن مردويه عن عائشة وجزم ابن كثير بأنها مدنية، واستدل على ذلك بما أخرجه الإمام أحمد وابن قانع في معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه عن أبي خيثمة البدري قال: لما نزلت ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ إلى آخرها قال جبريل عليه السلام: يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً فقال النبي ﷺ لأبي رضي الله تعالى عنه: «إن جبريل عليه السلام أمرني أن أقرئك هذه السورة» فقال أبي: أو قد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم» فبكى وهذا هو الأصح. وآيها تسع في البصري وثمان في غيره. وجاء في فضلها ما أخرجه أبو موسى المديني في المعرفة عن إسماعيل بن أبي حكيم عن مطر المزني أو المدني عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يسمع قراءة ﴿**لم يكن الذين كفروا**﴾ فيقول: أبشر عبدي فوعزتي لا أسألك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ولأمكنن لك في الجنة حتى ترضى». ووجه مناسبتها لما قبلها أن قوله تعالى فيها ﴿**لم يكن الذين**﴾ الخ كالتعليل لإنزال القرآن كأنه قيل: إنّا أنزلناه لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفاً مطهرة وهي ذلك المنزل فلا تغفل.

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا
مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ
أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي اليهود والنصارى وإيرادهم بذلك العنوان قيل لإعظام شناعة كفرهم، وقيل: للإشعار بعلة ما نسب إليهم من الوعد باتباع الحق فإن مناط ذلك وجدانهم له في كتابهم وهو مبني على وجه يأتي إن شاء الله تعالى في الآية بعد. وإيراد الصلة فعلاً لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم عليهم السلام بالآحاد في صفات الله عز وجل ومن للتبعيض كما قال علم الهدى الشيخ أبو منصور الماتريدي في التأويلات لا للتبيين لأن منهم من لم يكفر بعد نبيه وكان على الاعتقاد الحق حتى توفاه الله تعالى، وعد من ذلك الملكانية من النصارى فقيل إنهم كانوا على الحق قبل بعثة رسول الله ﷺ والتبيين يقتضي كفر جميعهم قبل البعث والظاهر خلافه. وأيد إرادة التبعيض بما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن المراد بأهل الكتاب اليهود الذين كانوا بأطراف المدينة من بني قريظة والنضير وبني قينقاع، وقال بعض: لا نسلم أن التبيين يقتضي كفر جميعهم قبل البعث لجواز أن يكون التعبير عنهم بالذين كفروا باعتبار حالهم بعد البعثة كأنه قيل لم يكن هؤلاء الكفرة وبينوا بأهل الكتاب. ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ وهم من اعتقدوا لله سبحانه شريكاً صنماً أو غيره، وخصهم بعض بعبدة الأصنام لأن مشركي العرب الذين بمكة والمدينة وما حولهما كانوا كذلك وهم المقصودون هنا على ما روي عن الحبر. وأيًّا ما كان فالعطف على أهل الكتاب ولا يلزم على التبعيض أن لا يكون بعضهم كافرين ليجب العدول عنه للتبيين لأنهم بعض من المجموع كما أفاده بعض الأجلّة. واحتمال أن يراد بالمشركين أهل الكتاب وشركهم لقولهم المسيح ابن الله وعزير ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. والعطف لمغايرة العنوان ليس بشيء. وقرىء «والمشركون» بالرفع عطفاً على الموصول وحمل قراءة الجمهور على ذلك واعتبار أو الجر للجوار لا يخفى حاله. والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير ﴿كفروا﴾ وقوله تعالى ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ خبر يكن والانفكاك في الأصل افتراق الأمور الملتحمة بنوع مزايلة وأريد به المفارقة لما كانوا عليه مما ستعرفه إن شاء الله تعالى فالوصف اسم فاعل من انفك التامة دون الناقصة الداخلة على المبتدأ والخبر. وزعم بعض النحاة أنه وصف منها والخبر محذوف أي واعدين اتباع الحق أو نحوه. وتعقب مع كونه خلاف الظاهر بأن خبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه في السعة لا اقتصاراً وحين ليس مجير أي في الدنيا ضرورة. وقوله تعالى ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ متعلق بمنفكين والبينة صفة بمعنى اسم الفاعل أي المبين للحق أو هي بمعناها المعروف وهو الحجة المثبتة للمدعي ويراد بها المعجز وعلى الوجهين. فقوله تعالى ﴿رَسُولٌ﴾ بدل منها بدل كل من كل أو خبر لمقدر أي هي رسول وتنوينه للتفخيم والمراد به نبينا ﷺ وقوله سبحانه ﴿مِنَ اللهِ﴾ في موضع الصفة له مفيد للفخامة الإضافية فهو مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية. وقوله تعالى ﴿يَتلو صُحُفاً مُطَهَّرَةً﴾ صفة أخرى له أو حال من الضمير في صفته الأولى كما أن قوله سبحانه ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ صفة ثانية لـ﴿صحفا﴾ أو حال من الضمير في صفتها الأولى أعني ﴿مطهرة﴾ ويجوز أن يكون الصفة أو الحال هنا الجار والمجرور فقط وكتب مرتفعاً على الفاعلية وإطلاق البينة عليه عليه الصلاة والسلام على المعنى الأول ظاهر، وعلى المعنى الأخير باعتبار أن أخلاقه وصفاته ﷺ كانت بالغة حد الإعجاز كما قال الغزالي في المنقذ من الضلال. وأشار إليه البوصيري بقوله:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

ويعلم منه حكمة جعله عليه الصلاة والسلام يتيماً أو باعتبار كثرة معجزاته ﷺ غير ما ذكر وظهورها. وجوز أن يراد بالبينة القرآن لأنه مبين للحق أو معجز مثبت للمدعى، وروي ذلك عن قتادة وابن زيد، و

﴿رسول﴾ عليه قيل بدل اشتمال أو بدل كل من كل أيضاً بتقدير مضاف أي بينة أو وحي أو معجز أو كتاب رسول أو هو خبر مبتدأ مقدر أي هي رسول ويقدر معه مضاف كما سمعت، وجوز أن يكون ﴿رسول﴾ مبتدأ لوصفه وخبره جملة ﴿يتلو﴾ الخ. وجملة المبتدأ وخبره مفسرة للبينة. وقيل اعتراض لمدحها وقيل صفة لها مراداً بها القرآن ويراد بالصحف المطهرة البينة وقد وضعت موضع ضميرها فكانت الرابط. وقرأ أبي وعبد الله «رسولاً» بالنصب على الحالية من البينة، والصحف جمع صحيفة وكذا الصحاف القراطيس التي يكتب فيها وأصلها المبسوط من الشيء، والمراد بتطهيرها تنزيهها عن الباطل على سبيل الاستعارة المصرحة. ويجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية أو تطهير من يمسها على التجوز في النسبة فكأنه قيل صحفاً لا يمسها إلاّ المطهرون والمراد بالكتب المكتوبات وبالقيمة المستقيمة واستقامتها نطقة بالحق. وفي التيسير هي كتب الأنبياء عليهم السلام والقرآن مصدق لها فكأنها فيه ووصفه عليه الصلاة والسلام بتلاوة الصحف المذكورة بناءً على المشهور من أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقرأ الكتاب كما أنه ﷺ لم يكن يكتب من باب التجوز في النسبة إلى المفعول لأنه ﷺ لما قرأ ما فيها فكأنه قرأها. وقيل على تقدير مضاف أي مثل صحف وقيل في ضمير استعارة مكنية بتشبيهه عليه الصلاة والسلام لتلاوته مثل ما فيها بتاليها أو الصحف مجاز عما فيها بعلاقة الحلول. ففي ضمير ﴿فيها﴾ استخدام لعوده على الصحف بالمعنى الحقيقي. وقيل المراد بالرسول جبريل عليه السلام، وبالصحف صحف الملائكة عليهم السلام المنتسخة من اللوح المحفوظ، وبتطهيرها ما سبق، والمراد بتلاوته عليه الصلاة والسلام إياها ظاهر وجعلها مجازاً عن وحيه إياها غير وجيه والأولى حمل الرسول على النبي ﷺ وهو المروي عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما. وقد اختلفوا في المعنى المراد بالآية اختلافاً كثيراً حتى قال الواحدي في كتاب البسيط: إنها من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً وبيّن ذلك بناءً على أن الكفر وصف لكل من الفريقين قبل البعثة بأن الظاهر أن المعنى لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكين عما هم عليه من الكفر حتى يأتيهم الرسول ﷺ، و ﴿حتى﴾ لانتهاء الغاية فتقتضي أنهم انفكوا عن كفرهم عند إتيان الرسول ﷺ وهو خلاف الواقع ويناقضه قوله تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُم الْبَيِّنَةُ﴾ فإنه ظاهر في أن كفرهم قد زاد عند ذلك فقال جار الله: كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث لا ننفك عما نحن فيه من ديننا حتى يبعث الله تعالى النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد ﷺ فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه، ثم قال سبحانه ﴿وما تفرق﴾ الخ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق وأقرهم على الكفر إلاّ مجيئه ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه: لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني الله تعالى الغنى فيرزقه الله عز وجل ذلك فيزداد فسقاً، فيقول واعظه: لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلاّ بعد اليسار يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً. وحاصله أن الأول من باب الحكاية لزعمهم وقوله سبحانه ﴿وما تفرق﴾ إلخ إلزام عليهم حكى الله تعالى كلامهم على سبيل التوبيخ والتعيير فقال: هذا هو الثمرة. وظاهره أنه أراد بتفرقهم عن الحق وحمل على الكفر والباطل لاستلزامه إياه وعدم التعرض للمشركين في قوله تعالى ﴿وما تفرق﴾ الخ لعلم حالهم من حال الذين أوتوا الكتاب بالأولى. وقيل وهو قريب من ذاك من وجه وفيه إيضاح له من وجه أي لم يكونوا منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان إلى أن أتاهم ما جعلوه ميقاتاً للاجتماع والاتفاق فاجعلوه ميقاتاً للانفكاك والافتراق كما قال سبحانه ﴿وما تفرق﴾ الخ. وفي التعبير بـ ﴿منفكين﴾ إشارة إلى وكادة وعدهم وهو

من أهل الكتاب مشهور حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. ومن المشركين لعله وقع من متأخريهم بعد ما شاع من أهل الكتاب واعتقدوا صحته مما شاهدوا مثلاً من بعض من يوثق به بينهم من قومهم كزيد بن عمرو بن نفيل فقد كان يتطلب نبياً من العرب ويقول: قد أظل زمانه وإنه من قريش بل من بني هاشم بل من بني عبد المطلب، ويشهد لذلك أنهم قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام سمى منهم غير واحد ولده بمحمد رجاء أن يكون النبي المبعوث والله أعلم حيث يجعل رسالته. والتعبير عن إتيانه بصيغة المضارع باعتبار حال المحكي لا باعتبار حال الحكاية كما في قوله تعالى ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ [البقرة: ١٠٢] أي تلت. وقوله تعالى ﴿**وما تفرق**﴾ الخ كلام مسوق لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصة ببيان أن ما نسب إليهم من الانفكاك لم يكن لاشتباه في الأمر بل بعد وضوح الحق وتبين الحال وانقطاع الأعذار بالكلية وهو السر في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبىء عن كمال تمكنهم من مطالعته والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار التي من جملتها ما يتعلق بالنبي عليه الصلاة والسلام وصحة بعثته بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جار مجرى اسم الجنس للطائفتين.

ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأي المذكور في حكم فريق واحد عبّر عما صدر منهم عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك، وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق اعتبار الاستقلال كل من فريقي أهل الكتاب وإيذاناً بأن انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأي آخر بل بطريق الاختلاف القديم. وتعقب التقريران بأنه ليس في الكلام ما يدل على أنه حكاية إلاّ على إرادة منفكين عن الوعد باتباع الحق. وقال القاضي عبد الجبار: المعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة وتعقبه الإمام بأن تفسير لفظ حتى بما ذكر ليس من اللغة في شيء، ولعله أراد أن المراد استمرار النفي وأن في الكلام حذفاً أي لم يكونوا منفكين عن كفرهم في وقت من الأوقات حتى وقت أن تأتيهم البينة إلاّ أنه عبّر بما ذكر لأنه أخصر، وفيه أيضاً ما لا يخفى. وقيل: المعنى لم يكونوا منفكين عن ذكر الرسول ﷺ بالمناقب والفضائل إلى أن أتاهم فحينئذ تفرقوا فيه وقال كل منهم فيه عليه الصلاة والسلام قولاً زوراً، وتعقب بأنه لا دلالة على إرادة ما قدر متعلق الانفكاك. وقيل المعنى لم يكونوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول ﷺ، فلما جاءهم تفرقوا فمنهم من آمن ومنهم من أصرَّ على كفره ويكفي ذلك في العمل بموجب حتى. وتعقب بأن ظاهر ﴿**وما تفرق**﴾ الخ ذمّ لجميعهم وتشنيع عليهم ويؤيده قوله سبحانه بعد ﴿**إن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ الخ ويبعد ذلك على حمل التفرق على إيمان بعض وإصرار بعض. وقيل: المعنى لم يكونوا منفكين عن كفرهم بأن يترددوا فيه بل كانوا جازمين به معتقدين حقيته إلى أن أتاهم رسول الله ﷺ فعند ذلك اضطربت خواطرهم وأفكارهم وتشكك كل في دينه ومقالته وفيه ما لا يخفى. وقيل: معنى ﴿**منفكين**﴾ هالكين من قولهم انفك صلا المرأة عند الولادة وهو أن ينفصل فلا يلتئم، والمعنى لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلاّ بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقريب منه معنى ما قيل لم يكونوا منفكين عن الحياة بأن يموتوا ويهلكوا حتى تأتيهم البينة وهو كما ترى. وقيل المراد أنهم لم ينفكوا عن دينهم حقيقة إلى مجيء الرسول التالي للصحف المبينة نسخه وبطلانه ولما جاء وتبين ذلك انفكوا عنه حقيقة وإن بقوا عليه صورة وفيه ما فيه. وقال أبو حيان: الظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين أي منفصلاً بعضهم عن بعض بل كان كل منهم

مقراً الآخر على ما هو عليه مما اختاره لنفسه هذا من اعتقاده بشريعته وهذا من اعتقاده بأصنامه، وحاصله أنه اتصلت مودتهم واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البينة ﴿**وما تفرق الذين أوتوا**﴾ أي من المشركين وانفصل بعضهم من بعض فقال كل ما يدل عنده على صحة قوله ﴿**إلاّ من بعد ما جاءتهم البينة**﴾ وكان يقتضي عند مجيئها أن يجتمعوا على اتباعها ولا يخفى أن قوله ﴿**بل كان كل منهم**﴾ الخ في حيّز المنع. وأيضاً حمل ﴿**وما تفرق**﴾ على ما حمله عليه غير ظاهر. وقال ابن عطية: ها هنا وجه بارع المعنى وذلك أن يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره سبحانه حتى يبعث عز وجل إليهم رسولاً منذراً يقيم تعالى عليهم به الحجة ويتم على من آمن به النعمة فكأنه قال: ما كانوا ليتركوا سدى ولهذا نظائر في كتاب الله جل جلاله هذا ما ظفرنا به سؤالاً وجواباً وجرحاً وتعديلاً. ثم إني أقول ما تقدم في تقرير الإشكال مبني على مذهب القائلين بمفهوم الغاية وهم أكثر الفقهاء وجماعة من المتكلمين كالقاضي أبي بكر والقاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري وغيرهم دون مذهب الغير القائلين به وهم أصحاب الإمام أبي حنيفة وجماعة من الفقهاء والمتكلمين، واختاره الآمدي واستدل عليه بما استدل ورد ما يعارضه من أدلة المخالف وعليه يمكن أن يقال إنه سبحانه وتعالى بيّن أولاً حال الذين كفروا من الفريقين إلى وقت إتيان الرسول ﷺ بقوله عز وجل ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين**﴾ أي عما هم عليه من الدين حسب اعتقادهم فيه إلى أن يأتيهم الرسول، ولما لم يتعرض في ذلك على ذلك المذهب لحالهم بعد إتيان الرسول عليه الصلاة والسلام بيّنه سبحانه بقوله جل وعلا ﴿**وما تفرق الذين أوتوا الكتاب**﴾ الخ أي وما تفرقوا فعرف بعض منهم الحق وآمن وعرفه بعض آخر منهم وعاند فلم يؤمن في وقت من الأوقات إلاّ من بعدما جاءتهم البينة. وطوى سبحانه ذكر حال المشركين لعلمه بالأولى من حالهم ثم إنه تعالى ذكر بعد حال كل من الفريقين المؤمن والكافر وما له في الآخرة بقوله سبحانه ﴿**إن الذين كفروا**﴾ الخ وقوله تعالى ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ الخ والذي أميل إليه مما تقدم كون الانفكاك عن الوعد باتباع الحق، ولعل القرينة على اعتباره حالية ويحتمل نحواً آخر من التوجيه وذلك بأن يجعل الكلام من باب الأعمال فيقال: إن ﴿**منفكين**﴾ يقتضي متعلقاً هو المنفك عنه و ﴿**تأتيهم**﴾ يقتضي فاعلاً وليس في الكلام سوى البينة فكل منهما يقتضيه فأعمل فيه ﴿**تأتيهم**﴾ وحذف معمول ﴿**منفكين**﴾ لدلالته عليه فكأنه قيل: لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكين عن البينة حتى تأتيهم البينة، وحيث كان المراد بالبينة الرسول كان الكلام في قوة لم يكونوا منفكين عن الرسول حتى يأتيهم. ويراد بعدم الانفكاك عن الرسول حيث لم يكن موجوداً إذ ذاك عدم الانفكاك عن ذكره والوعد باتباعه ويكون باقي الكلام في الآية على نحو ما سبق على تقدير إرادة ﴿**منفكين**﴾ عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق وإن شئت قلت في قوله تعالى ﴿**وما تفرق**﴾ الخ أنه على معنى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب عن الرسول وما انفكوا عنه بالإصرار على الكفر إلاّ من بعد ما جاءهم فتأمل جميع ما أتيناك به والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

وقوله تعالى ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ**﴾ جملة حالية مفيدة لغاية قبح ما فعلوا والمراد بالأمر مطلق التكليف ومتعلقه محذوف واللام للتعليل، والكلام في تعليل أفعاله تعالى شهير والاستثناء مفرغ من أعم العلل أي والحال أنهم ما كلفوا في كتابهم بما كلفوا به لشيء من الأشياء إلا لأجل عبادة الله تعالى. وقال الفرّاء: العرب تجعل اللام موضع أن في الأمر كأمرنا لنسلم وكذا في الإرادة كيريد الله ليبين لكم فهي هنا بمعنى أن

أي إلاّ بأن يعبدوا الله وأيّد بقراءة عبد الله إلاّ أن يعبدوا فيكون عبادة الله تعالى هي المأمور بها والأمر على ظاهره والأول هو الأظهر وعليه قال علم الهدى أبو منصور الماتريدي: هذه الآية علم منها معنى قوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦] أي إلا لأمرهم بالعبادة فيعلم المطيع من العاصي وهو كما قال الشهاب كلام حسن دقيق. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي جاعلين دينهم خالصاً له تعالى فلا يشركون به عز وجل فالدين مفعول لمخلصين، وجوز أن يكون نصباً على إسقاط الخافض ومفعول ﴿مخلصين﴾ محذوف أي جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين. وقرأ الحسن «مُخْلَصِينَ» بفتح اللام وحينئذ يتعين هذا الوجه في الدين ولا يتسنى الأول. نعم جوز أن يكون نصباً على المصدر والعامل ﴿ليعبدوا﴾ أي ليدينوا الله تعالى بالعبادة الدين ﴿حُنَفَاءَ﴾ أي مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام وفيه من تأكيد الإخلاص ما فيه، فالحنف الميل إلى الاستقامة وسمي مائل الرجل إلى الاعوجاج أحنف للتفاؤل أو مجاز مرسل بمرتبتين. وعن ابن عباس تفسير حنفاء هنا بحجاجاً. وعن قتادة بمختتنين محرمين لنكاح الأم والمحارم وعن أبي قلابة بمؤمنين بجميع الرسل عليهم السلام. وعن مجاهد بمتبعين دين إبراهيم عليه السلام، وعن الربيع بن أنس بمستقبلين القبلة بالصلاة وعن بعض بجامعين كل الدين وحال الأقوال لا يخفى ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة فالأمر بهما ظاهر وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في كتابهم أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها ﴿وَذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما فيه من البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ أي الكتب القيمة فأل للعهد إشارة إلى ما تقدم في قوله تعالى ﴿فيها كتب قيمة﴾ وإليه ذهب محمد بن الأشعث الطالقاني. وقال الزجاج: أي الأمة القيمة أي المستقيمة. وقال غير واحد: أي الملة القيمة والتغاير الاعتباري بين الدين والملة يصحح الإضافة، وبعضهم لم يقدر موصوفاً ويجعل ﴿القيمة﴾ بمعنى الملة وقيل أي الحجج القيمة. وقرأ عبد الله رضي الله تعالى عنه «الدين القيمة» فقيل التأنيث على تأويل الدين بالملة وقيل الهاء للمبالغة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قيل بيان لحال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم، فالمراد بهؤلاء الذين كفروا هم المتقدمون في صدر السورة وفي ذلك احتمال أشرنا إليه فلا تغفل. ومعنى كونهم في نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة لكن لتحقق ذلك لم يصرح به. وجيء بالجملة اسمية أو يقدر متعلق الجار بمعنى المستقبل أو أنهم فيها الآن على إطلاق نار جهنم على ما يوجبها من الكفر مجازاً مرسلاً بإطلاق اسم المسبب على السبب. وجوزت الاستعارة وقيل إن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلاّ أنها ظهرت في هذه النشأة بصورة عرضية وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية وقد مر نظيره غير مرة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من المستكن في الخبر واشتراك الفريقين في دخول النار بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهما في الكيفية فإن جهنم والعياذ بالله تعالى دركات وعذابها ألوان، فيعذب أهل الكتاب في درك منها نوعاً من العذاب، والمشركون في درك أسفل منه بعذاب أشد لأن كفرهم أشد من كفر أهل الكتاب، وكون أهل الكتاب كفروا بالرسول الله ﷺ مع علمهم بنعوته الشريفة وصحة رسالته من كتابهم ولم يكن للمشركين علم بذلك كعلمهم لا يوجب كون عذابهم أشد من عذاب

المشركين ولا مساوياً له فإن الشرك ظلم عظيم. وقد انضم إليه من أنواع الكفر في المشركين مما ليس عند أهل الكتاب وقد استدل بالآية على خلود الكفار مطلقاً في النار ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة وما فيه من معنى البعد لبعد منزلتهم في الشر أي أولئك البعداء المذكورون ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ أي الخلقية وقيل أي البشر، والمراد قيل هم شر البرية أعمالاً فتكون الجملة في حيّز التعليل لخلودهم في النار. وقيل شرها مقاماً ومصيراً فتكون تأكيداً لفظاعة حالهم، ورجح الأول بأنه الموافق لما سيأتي إن شاء الله تعالى في حق المؤمنين. وأيًّا ما كان فالعموم على ما قيل مشكل فإن إبليس وجنوده شر منهم أعمالاً ومقاماً وكذا المشركون والمنافقون حيث ضموا إلى الشرك النفاق وقد قال سبحانه ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ [النساء: ١٤٥] وقال بعض: لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر منهم كفرعون وعاقر الناقة. وأجاب بأن المراد بالبرية المعاصرون لهم ولا يخفى أنه يبقى معه الإشكال بإبليس ونحوه. وأجيب بأن ذلك إذا كان الحصر حقيقياً وأما إذا كان إضافياً بالنسبة إلى المؤمنين بحسب زعمهم فلا إشكال إذ يكون المعنى أولئك هم شر البرية لا غيرهم من المؤمنين كما يزعمون مآلاً أو حالاً. وقيل: يراد بالبرية البشر. ويراد بشريتهم شريتهم بحسب الأعمال ولا يبعد أن يكونوا بحسب ذلك هم شر جميع البرية لما أن كفرهم مع العلم بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام ومشاهدة معجزاته الذاتية والخارجية ووعد الإيمان به عليه الصلاة والسلام ومع إدخالهم به الشبهة في قلوب من يأتي بعدهم وتسببهم به ضلال كثير من الناس إلى غير ذلك مما تضمنه واستلزمه من القبائح شر كفر وأقبحه لا يتسنى مثله لأحد من البشر إلى يوم القيامة، وكذا سائر أعمالهم من تحريف الكلم عن مواضعه وصد الناس عنه ﷺ ومحاربتهم إياه عليه الصلاة والسلام، وكون كفر فرعون وعاقر الناقة وفعلهما بتلك المثابة غير مسلم ويلتزم دخول المنافقين في عموم الذين كفروا أو كون كفرهم وأعمالهم دون كفر وأعمال المذكورين وفيه شيء لا يخفى فتأمل. وقيل: ليس المراد بأولئك الذين كفروا أقواماً مخصوصين وهم المحدث عنهم أولاً بل الأعم الشامل لهم ولغيرهم من سالف الدهر إلى آخره وهو على ما فيه لا يتم بدون حمل البرية على البشر فلا تغفل. وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع «البريئة» هنا وفيما بعد بالهمزة فقيل هو الأصل من برأهم الله تعالى بمعنى ابتدأهم واخترع خلقهم فهي فعيلة بمعنى مفعولة، لكن عامة العرب إلاّ أهل مكة التزموا تسهيل الهمزة بالإبدال والإدغام فقالوا: البرية كما قالوا الذرية والخابية. وقيل: ليس بالأصل وإنما البرية بغير همز من البرى المقصور يعني التراب فهو أصل برأسه والقراءتان مختلفتان أصلاً ومادة ومتفقتان معنى في رأي وهو أن يكون المراد عليهما البشر، ومختلفان فيه أيضاً في رأي آخر وهو أن يكون المراد بالمهموز الخليقة الشاملة للملائكة والجن كالبشر، وبغير المهموز البشر المخلوقون من التراب فقط وأيًّا ما كان فليست القراءة بالهمز خطأ كيف وقد نقلت عمن ثبتت عصمته مع أن الهمز لغة قوم من أنزل عليه الكتاب ﷺ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثر بيان سوء حال الكفرة جرياً على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب أو هو على ما أشرنا إليه سابقاً. وقال عصام الدين: إن قوله تعالى ﴿إن الذين كفروا﴾ الخ كالتأكيد لقوله تعالى ﴿ذلك دين القيمة﴾ إذا لا تحقيق لكونها الملة القيمة فوق أن يكون جزاء المعرض هذا وجزاء الممتثل ذلك إلاّ أن ذلك اقتضى قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا﴾ الخ وكأنه فصل لتخييل عدم المناسبة بين الجملتين لا في المسند إليه ولا في المسند ﴿أُولَئِكَ﴾ أي المنعوتون بما هو

الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة ﴿**هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ وقرأ حميد وعامر بن عبد الواحد «هم خيار البرية» وهو جمع خير كجياد وجيد ﴿**جَزَاؤُهُمْ**﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعات﴿**عِنْدِ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَـجْرِي مِنْ تَـحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**﴾ تقدمت نظائره. وفي تقديم مدحهم بخير البرية وذكر الجزاء المؤذن يكون ما منح في مقابلة ما وصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة وبما يزيدها نعيماً، وتأكيد الخلود بالأبود من الدلالة على غاية حسن حالهم ما لا يخفى. والظاهر أن جملة ﴿**هم خير البرية**﴾ خبر اسم الإشارة وكذا ما بعد وزعم بعض الأجلّة أن الأنسب بالعديل السابق أن تجعل معترضة ويكون الخبر ما بعدها وفيه نظر. وقوله تعالى ﴿**رَضِيَ الله عَنْهُمْ**﴾ استئناف نحوي وإخبار عمل تفضل عز وجل به زيادة على ما ذكر من أجزية أعمالهم، ويجوز أن يكون بيانياً جواباً لمن يقول ألهم فوق ذلك أمر آخر وجوز أن يكون خبراً بعد خبر أو حالاً بتقدير قد أو بدونه، وجوز أن يكون دعاء لهم من ربهم وهو مجاز عن الإيجاد مع زيادة التكريم وهو خلاف الظاهر ويبعده عطف قوله تعالى ﴿**وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ عليه وعلل رضاهم بأنهم بلغوا من المطالب قاصيتها ومن المآرب ناصيتها، وأتيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿**ذَلِكَ**﴾ أي ما ذكره من الجزاء والرضوان ﴿**لِـمِنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾ فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية والفوز بالمراتب العلية إذ لولاها لم تترك المناهي والمعاصي ولا استعد ليوم يؤخذ فيه بالأقدام والنواصي. وفيه إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصلاً إلى أقصى المراتب ورضوان من الله أكبر، بل الموصل له خشية الله تعالى و﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [فاطر: ٢٨] ولذا قال الجنيد قدس سره: الرضا على قدر قوة العلم والرسوخ في المعرفة وقال عصام الدين: الأظهر أن ذلك إشارة إلى ما يترتب عليه الجزاء والرضوان من الإيمان والعمل الصالح، وتعقب بأن فيه غفلة عما ذكر وعن أنه لا يكون حينئذ لقوله تعالى ﴿**ذلك**﴾ الخ كبير فائدة والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للإشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية. واستدل بقوله تعالى ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ الخ على أن البشر أفضل من الملك لظهور أن المراد بالذين آمنوا المؤمنون من البشر، وفي الآثار ما يدل على ذلك. أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً: «أتعجبون لمنزلة الملائكة من الله تعالى والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله تعالى يوم القيامة أعظم من منزلة الملك واقرؤوا إن شئتم ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾.

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله من أكرم الخلق على الله تعالى؟ قال: يا عائشة أما تقرئين ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية**﴾» وأنت تعلم أن هذا ظاهر في أن المراد بالبرية الخليقة مطلقاً ليتم الاستدلال ثم إنه يحتاج أيضاً إلى إدخال الأنبياء عليهم السلام في عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لا يراد بهم قوم بخصوصهم إذ لو لم يدخلوا لزم تفضيل عوام البشر أي الذين ليسوا بأنبياء منهم على خواص الملائكة أعني رسلهم عليهم السلام وذلك مما لم يذهب إليه أحد من أهل السنة بل هم يكفرون من يقول به فليتفطن. والإمام قد ضعف الاستدلال في تفسيره بما لا يخلو عن بحث، ولعل الأبعد عن القيل والقال جعل الحصر إضافياً بالنسبة إلى ما يزعمه أهل الكتاب والمشركون قالاً أو حالاً من أنهم هم خير البرية وكذا يجعل الحصر السابق بالنسبة إلى ما يزعمونه من أن المؤمنين هم شر البرية وصحة ما سبق من الآثار في حيّز المنع. ثم الظاهر أن المراد بـ ﴿**الذين آمنوا**﴾ الخ مقابل ﴿**الذين كفروا**﴾ والأقوم من الذين

انصفوا بما في حيّز الصلة بخصوصهم وزعم بعضهم أنهم مخصوصون. فقد أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألم تسمع قول الله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾؟ هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جئت الأمم للحساب يدعون غراً محجلين» وروى نحوه الإمامية عن يزيد بن شراحيل الأنصاري كاتب الأمير كرم الله تعالى وجهه. وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك له عند الوفاة ورأسه الشريف على صدره رضي الله تعالى عنه. وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**إن الذين آمنوا**﴾ الخ قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين». وذلك ظاهر في التخصيص وكذا ما ذكره الطبرسي الإمامي في مجمع البيان عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال في الآية: نزلت في عليّ كرم الله تعالى وجهه وأهل بيته. وهذا إن سلمت صحته لا محذور فيه إذ لا يستدعي التخصيص بل الدخول في العموم وهم بلا شبهة داخلون فيه دخولاً أولياً وأما ما تقدم فلا تسلم صحته فإنه يلزم عليه أن يكون علي كرم الله تعالى وجهه خيراً من رسول الله ﷺ والإمامية وإن قالوا إنه رضي الله تعالى عنه خير من الأنبياء حتى أولي العزم عليهم السلام ومن الملائكة حتى المقربين عليهم السلام لا يقولون بخيريته من رسول الله ﷺ، فإن قالوا بأن البرية على ذلك مخصوصة بمن عداه عليه الصلاة والسلام للدليل الدال على أنه ﷺ خير منه كرم الله تعالى وجهه قيل إنها مخصوصة أيضاً بمن عدا الأنبياء والملائكة ومن قال أهل السنة بخيريته للدليل الدال على خيرتيهم. وبالجملة لا ينبغي أن يرتاب في عدم تخصيص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأمير كرم الله تعالى وجهه وشيعته ولا به رضي الله تعالى عنه وأهل بيته وإن دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتاد والله تعالى أعلم.

ثم إن الروايات في أن هذه السورة قد نسخ منها كثير كثيرة منها أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن أُبيّ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك القرآن» فقرأ عليه الصلاة والسلام ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ فقرأ فيها: «ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه يسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه يسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب ويتوب الله على من تاب وإن الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل ذلك فلن يكفره». وفي بعض الآثار أن النبي ﷺ اقرأه هكذا ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول سن الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة إن أقوم الدين الحنيفية مسلمة غير مشركة ولا يهودية ولا نصرانية ومن يعمل صالحاً فلن يكفره وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البينة إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند الله شر البرية ما كان الناس إلاّ أمة واحدة ثم أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين يأمرون الناس يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده أولئك عند الله خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه. أخرج ذلك ابن مردويه عن أُبيّ رضي الله تعالى عنه وهو مخالف لما صح عنه فلا يعول عليه كما لا يخفى على العارف بعلم الحديث.